القسم الأول

الحياة العباسية

نموها، تطورها، ازدهار الأدب فيها

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

مشكلة التقسيم للعصر العباسى

(١٣٢ - ٦٥٦ هـ : ٧٥٠ - ١٢٥٨ م)

أولا: التقسيم السياسى

واضح لمن يرصد الفترة التاريخية لهذا العصر أنها فترة طويلة تربو على خمسة قرون بحوالى ربع قرن (٥٢٤ عامًا هجريًا) ونظراً للأحداث المتعددة وألوان الحكم المتباينة التى قامت فى هذه المدة الطويلة فإن المؤرخين يقسمون هذا العصر إلى عصور أو فترات تاريخية مختلفة لكل فترة طابعها وأحداثها التى تميزها، ومن طبيعة الفروق المختلفة بين هذه الفترات سوف نجد لكل فترة ملامح ومؤثرات تتميز بها حياة اللغة العربية وتراثها الأدبى والفكرى:

العصر العباسى الأول: (١٣٢ - ٢٣٢ هـ).

ويسمى بالعصر العربى لأن حقيقة السلطة فيه كانت فى يد الخلفاء العرب؛ إذْ ما كان يُعقل أن يغفل الخلفاء عن متابعة عمالهم ووزرائهم عند بدء تكوين الدولة وقيامها، ولاسيما والعلويون يتربصون بهم وينقمون عليهم أنهم انتزعوا بل سرقوا الخلافة منهم. وخلفاء هذا العصر على التوالى هم:

١ - السفاح : (١٣٢ هـ - ٧٥٠ م)
٢ - المنصور : (١٣٦ هـ - ٧٥٤ م)
٣ - المهدى : (١٥٨ هـ - ٧٧٥ م)
٤ - الهادى : (١٦٩ هـ - ٧٨٥ م)
٥ - الرشيد : (١٧٠ هـ - ٧٨٦ م)
٦ - الأمين : (١٩٣ هـ - ٨٠٩ م)

٧ - المأمون : (١٩٨ هـ - ٨١٣ م)

٨ - المعتصم : (٢١٨ هـ - ٨٣٣ م)

٩ - الواثق : (٢٢٧ هـ - ٨٤٢ م)

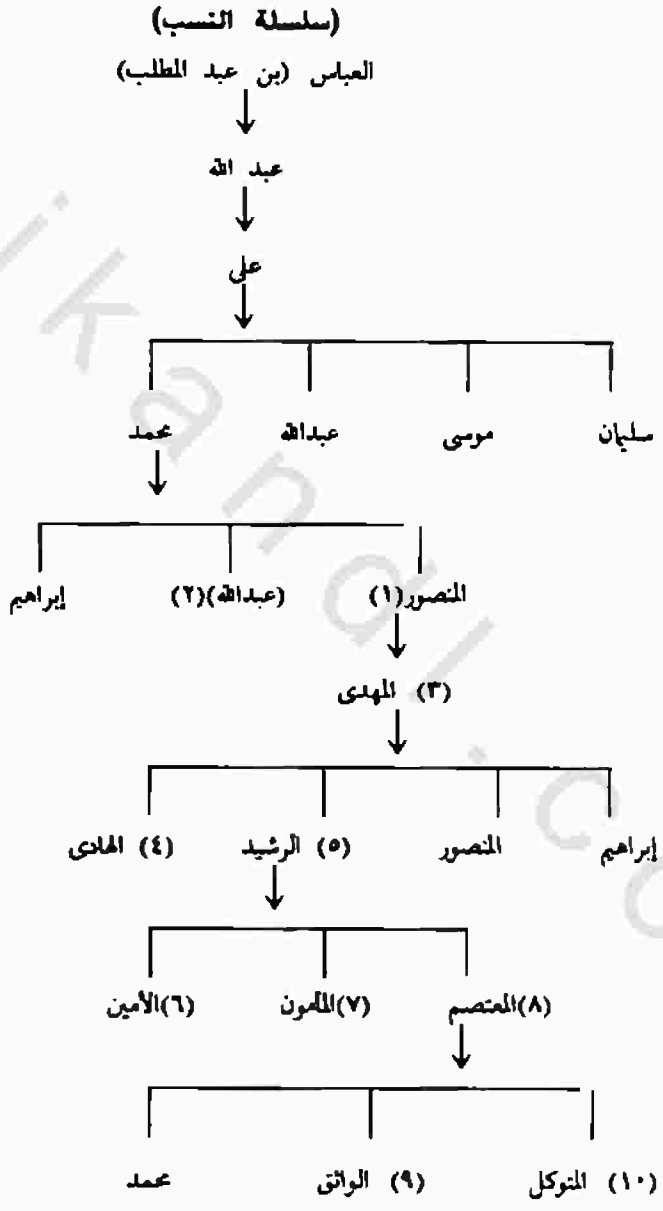

obeikandl.com

العصر الثانى : (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ).

ويسمى بعصر النفوذ التركى؛ لأنه فى هذا العصر انتقل السلطان من يد الخلفاء إلى يد جنودهم من الأتراك، وهذا العصر يشمل الخلفاء الآتية أسماؤهم :

١ - المتوكل على الله : (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ)

٢ - المستنصر بالله : (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ)

٣ - المستعين بالله : (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ)

٤ - المعتز : (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ)

٥ - المهتدى : (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ)

٦ - المعتمد على الله : (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ)

٧ - المعتضد بالله : (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ)

٨ - المكتفى : (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ)

٩ - المقتدر : (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)

١٠ - القاهر بالله : (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ)

١١ - الراضى : (٣٢٢ هـ)

١٢ - المتقى : (٣٢٩ هـ)

١٣ - المستكفى : (٣٣٣ هـ)

١٤ - المطيع : (٣٣٤ هـ - بداية بنى بويه)

١٥ - الطائع : (٣٦٣ هـ)

١٦ - القادر : (٣٨١ هـ)

١٧ - القائم : (٤٢٢ هـ)

١٨ - المقتدى : (٤٦٧ هـ)

وفى أواخر هذه الفترة وجدت فترة تسمى بعصر إمرة الأمراء؛ حيث ضعف نفوذ الخلفاء إلى حد بعيد، وأصبحوا يسلمون مقاليد الحكم إلى نفر من رجال الجيش الأقوياء، ويلقبون الواحد منهم بلقب (أمير الأمراء) كما فعل الخليفة الراضى مع (ابن رائق) الذى كان يلى شئون البصرة، حيث سلمه مقاليد الأمور وأمر بأن يخطب له على المنابر، وأصبح الخليفة والوزير فى الدولة كمقاعد الزينة التى تظهر فى المناسبات إذا اقتضت الحاجة ذلك، وظل الأمر فى يد إمرة الأمراء من ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ.

العصر الثالث: (٣٣٤-٤٤٧هـ).

ويسمى بعصر بنى بوية، حيث استولى هؤلاء على بغداد، ويقال له أيضًا العصر الفارسى، لأن ملوك هذه الأسرة الذين ظهرت عظمتهم على سبيل المفاجأة مرة واحدة أصلهم فارسى؛ إذ يقال إنهم ينتسبون إلى (بهرام جور أحد ملوك آل ساسان، ويقال أيضًا إنهم من دهماء الفرس.

العصر الرابع: (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ)

ويبدأ هذا العصر باستيلاء السلاجقة على بغداد، وينتهى بسقوط دولتهم على يد زعيم المغول «هولاكو» حيث استولى بجيوشه على بغداد وقتل المستعصم آخر خلفاء بنى العباس وبذلك سقط نجم الخلافة العباسية والنفوذ السلجوقى معًا[1].

وهناك تقسيم تاريخى أو سياسى آخر ذهب إليه أستاذنا الدكتور شوقى ضيف حيث يرى أن العصر العباسى يضم عصرين هما العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) والعصر العباسى الثانى (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ) وأخرج فى كل منهما كتابًا مستقلاً ثم جعل الفترة التالية لذلك «عصر الدول والامارات» وهو يبدأ من نهاية العصر العباسى الثانى ويمتد إلى نهاية العصور الوسطى وبداية

(١) راجع تاريخ الإسلام د: حسن إبراهيم: جـ٢، ٣. وراجع الطبرى الجزء التاسع وما بعده (خلافة أبى العباس ١٣٢ هـ) طأولى الحسينية بمصر. وانظر مقدمة تاريخ الشعر العربى جـ٢ — د. محمد عبد العزيز الكفراوى.

العصر الحديث، وذلك لأن بغداد لم تعد منذ استيلاء البويهيين عليها إلا مجرد رمز لخلافة إسمية، وأما الخلافة العباسية فقد انتهت بنهاية العصر الثانى (٣٣٤ هـ).

وهذا التقسيم له مبرراته التاريخية والفنية التى تؤيده وتنهض به، ولكنه فى الأساس لا يغير مجرى التقسيم التاريخى بل يتجه إلى معالجته بأسلوب تاريخى يعتمد على الواقع التاريخى، لأنه حيث بدأ عصر الدول والإمارات لا يصح أن نستمر فى تقسيم العصر العباسى لأن الباقى منه هو اسم الخلافة العباسية فقط[1].

أبرز الملامح التى تميز هذه العصور

يرى المؤرخون أن الفترة التى بدأت بقيام الدولة العباسية إلى استيلاء بنى بويه على بغداد (١٣٢ - ٣٣٤) هى الفترة التى ازدهرت فيها الحياة الأدبية واللغوية والفكرية على نحو واسع النطاق حيث احتفى الخلفاءُ والولاة بالشعراءِ والأدباءِ والعلماءِ وأغدقوا عليهم العطايا، وأنفقوا على نقل العلوم والمعارف نفقات هائلة، وفى عهدى الرشيد والمأمون كان يُعطى المترجم وزن الكتاب ذهبًا وبذلك قامت حركة ترجمة واسعة نقل خلالها كثير من العلوم والمعارف التى كانت تذخر بها الثقافات والحضارات الأخرى.

وقد وُضعت المادة العلمية الوافدة فى كثير من الأحيان فى مختبر الفكر الإسلامى فاستفاد بها هذا الفكر واستثمرها، وتشكلت هى الأخرى بطوابعه، وتغذت بزاده، ورويت من مشاربه، وفتحا معًا طريقًا جديدة فى حضارة الإنسان، تلك الطريق التى شكلت المنطق الأساسى للحضارة الإنسانية فى أدوارها التالية. وفى ضوءِ التقسيم السياسى وهو التقسيم الأكثر شيوعًا فى الدرس

---

(١) يلاحظ أننى أغفلت تقسيم الأستاذ جرجى زيدان لأنه تقسيم تاريخى سياسى ولا يقدم جديدًا بل عليه ملاحظات أبرزها: الغموض والإبهام عند كلامه عن العصر الثانى. انظر تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان ١٠/٢ ط دار الهلال مراجعة وتعليق د. شوقى ضيف.

الأدبى يمكن القول بأنه ابتداءً من العصر العباسى الأول سنة ١٣٢ هـ إلى ظهور البويهيين سنة ٣٣٤ هـ كانت الحياة الأدبية واللغوية تأخذ حظها من الرقى والكمال على تفاوت فى الدرجة، ولكن المائة سنة الأولى (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) هى العصر المزدحم بحرارة الانطلاق والتجديد المفعم بالحياة الخصبة الموارة بالنهضة الأدبية واللغوية والفكرية، وظلت قوة الدفع تباشر فعلها فى حب العلم وطلب المعرفة وتقدير الأدب والحفاوة بالكلمة والفكرة طوال العصر العباسى الثانى أى المائة التالية للمائة الأولى وهى الفترة التى شغل فيها الخلفاءُ بمشاكل الحكم حيث تسلط الأتراك على السلطة.

أما فترة الحكم البويهى أو الفارسى (٣٣٤ - ٤٤٧) وهى أكثر من مائة عام فقد كان فيها أيضًا أدباءُ كبار منهم أبو العلاء المعرى (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) والشريف الرضى (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ) وفى مدة حكم البويهيين ظهرت الكتب الوافية فى علوم اللغة والتاريخ والأدب والطب والفلسفة، فإذا كان العصر السابق عليهم بشقيه العربى والتركى هو عصر البلاغة الأدبية ورقى الشعر والكتابة الفنية فإن عصر البويهيين كان عصر النشاط للتأليف العلمى (فهو عصر الموسوعات) وقد عاصرت الدولَة البويهية دول أخرى منها: الدولة السامانية بتركستان (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) والدولة الزيارية بطبرستان (٣١٦ - ٤٣٤ هـ) وعاصرت الدول التركية: الإخشيدية بمصر (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) والغزنوية بأفغانستان والهند من (٢٩٢ - ٣٨٠ هـ) وعاصرت أيضًا دولاً عربية كالفاطمية بمصر (٣٥٧ - ٥٦٧ هـ) والحمدانية بالشام من (٣١٧ - ٣٩٤ هـ).

وقد تنافست هذه الدول فى إكرام العلماءِ وتشجيعهم على التأليف وعظم شأن المكتبات الذاخرة بمئات الألوف من الكتب، فمكتبة العزيز الفاطمى كانت تضم ألف ألف كتاب فى الفقه والنحو والحديث والتاريخ والفلك والروحانيات، ومثلها مكتبة الحاكم بأمر الله، وفى بغداد كان وزيرها بهاءُ الدولة بن بويه قد جعل فى مكتبتها أكثر من عشرة آلاف مجلد مخطوط بخطوط الأئمة وقد احترقت عند دخول السلاجقة.[1]

(١) انظر الأدب العربى وتاريخه محمود مصطفى ١٧/٢ - ١٨ ط ٢.

وأما الفترة التى تنسب إلى السلاجقة من تاريخ استيلائهم على بغداد (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ) فالمعروف أن السلاجقة كانو خليطًا من فرسان الترك والفرس وقد أسلم الجد الأكبر لهذه الأسرة وهو سلجوق الكبير لأنه رأى أنه لن يتمكن من بلاد الإسلام إلا إذا كان على دينهم والمعروف أن الدولة البويهية كانت شيعيّة المذهب وكذلك الفاطمية بمصر، أما فى عهد السلاجقة فانتعش الاتجاه السنى، ويتميز هذا العهد بانتشار المدارس العلمية الكبرى فى العالم الإسلامى وأشهرها المدرسة النظامية ببغداد وكان التعليم فيها بالمجان، وفُرض لطلابها أرزاق تجرى عليهم، وكان من أساتذتها أبو إسحق الشيرازى وحجة الإسلام الإمام الغزالى وأبو زكريا التبريزى وغيرهم من جلة العلماء المشهورين، ومن طلابها عماد الدين الأصفهانى وكمال الدين الأنبارى الذى صار أستاذًا بها.

وكذلك بنى نور الدين زنكى صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ هـ مجموعة من المدارس فى دمشق وحلب وحماه وغيرها من البلاد، وبنى السلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ هـ المدارس فى مصر والإسكندرية، ويروى ابن جبير أنه رأى فى رحلته حوالى عشرين مدرسة فى دمشق وثلاثين فى بغداد.

كذلك يمتاز هذا العصر بأنه عصر الموسوعات العلمية الجامعة وعصر التلخيص والتجميع، ولدينا من كتب هذا العصر على سبيل المثال معجم البلدان لياقوت الحموى، وكذلك معجم الأدباء ولكن الكتاب لم يعثر على جميع أجزائه وقد طبع منه حاليًا ستة أجزاء. ومن الكتب أيضًا شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ووفيات الأعيان لابن خلكان وغير ذلك من الكتب[1].

تلك هى الملامح العامة للفترات التاريخية المختلفة التى مرت بها مراحل الحكم فى العصر العباسى الذى امتد أكثر من خمسمائة عام.

---

(١) انظر، الأدب العربى وتاريخه محمود مصطفى ص ١٨/٢ - ٢٠ ط ٢ وراجع الموضوع بتوسع فى ضحى الإسلام لأحمد أمين جـ ٢ (الفصل الثانى: معاهد العلم فى العصر العباسى) ص ٤٩ ط ٢.

ثانيًا : التقسيم الأدبى

هناك تقسيمات أخرى للعصر العباسى تقوم على الفهم الأدبى وليس السياسى.

التقسيم الأول منها هو ما ذهب إليه الأستاذ حنا الفاخورى[1]، وهو يرى أن هذا العصر تتوزعه أقسام ثلاثة على النحو التالى.

القسم الأول :

أدب الثورة التجديدية ويبدأ ببشار بن برد (٩٦ - ١٦٨ هـ) وينتهى بظهور أبى تمام، ومن أبرز أعلامه : أبو نواس (٤٥- ١٩٨ هـ) وأبو العتاهية (١٣٠ - ٢١٠ هـ) ومسلم بن الوليد (١٣٠ - ٢٠٨ هـ) والعباس بن الأحنف (١٩٢ هـ) والحسين بن الضحاك (١٦٢ - ٢٥٠ هـ) ومن الكتاب عبد الله بن المقفع (١٠٦ - ١٤٢ هـ) وسهل ابن هارون (٢١٥ هـ).

القسم الثانى :

أدب الحركة المعاكسة، ويبدأ بظهور أبى تمام (١٨٠ - ٢٢٨ هـ) وينتهى بظهور المتنبى، ومن أبرز أعلامه : البحترى (٢٠٦ - ٢٨٤ هـ) وابن الرومى (٢٢١-٢٨٣ هـ) وابن المعتز (٢٤٩ - ٢٩٦ هـ) ومن الكتاب شيخهم الجاحظ (١٥٩ - ٢٥٥ هـ).

القسم الثالث :

أدب الاستقرار والتلرج نحو الصنعة والزخرف ويبدأ بظهور المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ) ومن أبرز أعلامه أبو فراس الحمدانى (٣٢٠ - ٣٥٧ هـ)،

---

(١) راجع تاريخ الأدب العربى حنا الفاخورى ص ٣٥٩ - ٣٦٧ ط بيروت المطبعة البولسية.

والشريف الرضي (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ) وأبو العلاء المعرى (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ)، وينتهى بنهاية البهاء زهير (٥٨١ - ٦٥٦ هـ).

التقسيم الثانى: تقسيم محدث وجديد، ومقنع إلى حد كبير، ذهب إليه أستاذنا الدكتور يوسف خليف[١] وهو يقوم على أساس أن ظواهر أدبية بعينها ميزت كلَّ منها قرنا من قرون العصر العباسى ابتداءً من القرن الثانى الهجرى الذى يمثل البداية الحقيقية فى التاريخ الأدبى لهذا العصر، وذلك حيث إن «القصيدة العربية لم تبدأ رحلتها من الأموية إلى العباسية مع قيام الدولة العباسية... وإنما بدأت مع تحرك المجتمع العربى إلى مجتمع جديد فى مستهل هذا القرن»[٢]، ويتم التقسيم على النحو التالى:

أولا: القرن الثانى:

«شغل بقضية أدبية ضخمة، وهى قضية التجديد فى القصيدة العربية للخروج بها من إطار الكلاسيكية الجديدة التى شهدتها القصيدة الأموية إلى إطار جديد تكون فيه قادرة على التعبير عن المجتمع الجديد»[٣]

وقد شغل الشعراءُ الكبار بهذا الدور، واستطاع بشار (٩٦ - ١٦٧ هـ) وأبو نواس (١٤٥ - ١٩٨ هـ) وأبو العتاهية (١٣٠ - ٢١٣ هـ) «أن ينجحوا فى هذه المحاولة، وأن يُرسلوا تقاليد القصيدة العباسية الجديدة»[٤].

ثانيًا: القرن الثالث:

وقد شغل بقضية أدبية كبرى «بدأت إرهاصاتها فى القرن الثانى واستكملت مقوماتها الفنية فى هذا القرن، وهى قضية الصراع بين القديم والجديد، أو - بعبارة أخرى - بين المحافظين من أصحاب عمود الشعر والمجددين من مدرسة

(١) راجع تاريخ الشعر العباسى ص٤ - ط ١٩٨١.
(٢) السابق ص٥.
(٣) السابق ص٧.
(٤) السابق ص٧

البديع، وهى القضية التى مثلها قطبا الصراع المتنافران فنيا: أبو تمام... زعيم المجددين فى هذا القرن، والبحترى زعيم المحافظين فيه، ورأس أصحاب عمود الشعر»[١].

ثالثًا: القرن الرابع:

وهذا القرن هو عصر المتنبى غير منازع «فقد شغله شاعر العربية الأكبر بمحاولته الناجحة فى التخلص من أثقال البديع وقيوده... ليعيد للقصيدة العربية روحها البدوى فى غير انفصال عن روح العصر الجديد بما يحمله من ثقافات عقلية، فحقق بهذا مزواجه عبقرية بين بساطة البداوة وصفائها وفطريتها وبين ثقافة عصره العقلية بقضاياها المعقدة»[٢].

رابعًا: القرن الخامس:

«وهو عصر أبى العلاء المعرى دون منازع... آخر عمالقة الشعر العربى القديم الذى استطاع بعبقريته الفذة أن يرتفع بشعره إلى مستوى إنسانى رفيع... عن طريق المزاوجة النادرة بين الفن والفلسفة (مع) هذه القدرة الفذة على التصرف فى اللغة وإخضاعها لأفكار الفلسفة العقلية الغريبة عليها»[٣].

وهكذا يمكن القول بأن التقسيم السياسى - وقد رأينا منه تقسيمين - له مبرراته التاريخية والسياسية.

والتقسيم الأدبى وقد رأينا منه تقسمين لكل منهما فكره وفلسفته فى تفسير التصور الأدبى، ولكن يوجد بينهما نقاط التقاء فى إدراك الحقائق الأدبية الخاصة بتطور الأدب، وبينهما كذلك وجوه خلاف فى طبيعة التفسير والتحديد للظواهر والشخصيات، فبينما نجد المتنبى وأبا العلاء فى قسم واحد لدى الأستاذ حنا الفاخورى نجد كلا منهما متميزاً فى تقسيم الأستاذ الدكتور يوسف خليف،

(١) السابق ص٧.
(٢) السابق ص٧.
(٣) السابق ص٨.

والواضح لى أن تقسيم الدكتور يوسف خليف أكثر رجحانا وقبولا فى إدراك طبيعة التطور الأدبى فى هذا العصر.

وأحب ان أشير إلى أنه لا غنى للدارس الأدبى عن معرفة التقسيمات التى تقوم على أساس تاريخى، وهو ينهض بمهمته للوصول إلى تقسيم يقوم على فقه أدبى، وهكذا يصبح إدراك التقسيم الحقيق لهذا العصر قائما على المعرفة التاريخية بأبعادها المختلفة وقائما على الفقه الأدبى لطبيعة التطور التى حدثت فيه.

وبعد هذا التعريف الذى يجمع صورة مركزة للعصر العباسى فى مداه الطويل ومراحله المتعددة وقسماته العامة التى تميز كل قسم من أقسامه، علينا أن نتوقف عند بداية ظهور الدولة وقيامها لنتعرف على العوامل التى أثرت فيها وكونتها، والاتجاهات والتيارات التى صاحبتها، ثم النتائج والآثار والاتجاهات التى نجمت عنها. فالتاريخ قراءة وتحليل، ووعى وتأمل للأسباب والنتائج والمؤثرات والآثار.

المبحث الثانى

نقطة التحول من العلويين إلى العباسيين

نظرًا للمظالم العنيفة التى ارتكبها الأمويون ضد العلويين والموالى فقد تجمعت قلوب هؤلاء وأولئك على حرب الأمويين والتربص بهم لا سيما بعد مقتل الإمام الحسين حيث توحدت صفوف الشيعة وقويت الدعوة لآل البيت[1]. والمعروف أن أولاد العباس عم النبى عليه السلام وهم أبناء عمومة العلويين لم يكونوا ينازعون العلويين أمر الخلافة فإن العباس بايع عليًا بن أبى طالب بالخلافة قائلا له: «هلم إلى أن أبايعك لا يختلف عليك اثنان[2] ولكن حدث فى مجريات الأمور ما جعل الحكم ينتقل إلى العباسيين بعد أن بذل فيه العلويون الكثير من عذابهم وقتلاهم.

والذى حدث بإيجاز شديد أن محمد بن على بن عبدالله بن عباس كان يقيم بقرية الحُمَيْمة (وهى بالشام على طريق دمشق).

«وفى سنة ٩٨ هـ» استدعى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك أبا هاشم بن محمد بن على بن أبى طالب وأكرم وفادته، وأظهر التودد اليه، ولكنه دبر أمر قتله خشية أن يدعو إلى نفسه فدس له مَنْ سمه وهو فى طريقه إلى بلدة الحميمه وهى قرية صغيرة فى أرض الشام والحجاز وهى التى كان يقيم فيها محمد بن على بن عبد الله العباس[3] ولما شعر أبو هاشم بدنوا أجله اتجه إلى محمد بن عبد الله بن عباس وأفضى إليه بأسرار الدعوة الهاشمية ونزل له عن حقوقه فى الإمامة وعرّفه بأسماءِ دعاته فى الكوفة وسلمه رسائل يقدمها إليهم»[4].

---

(١) انظر فى مقتل الحسين مروج الذهب للمسعودى ٣/٧٠.

(٢) المسعودى ٣/٢٥٢ وسيأتى مزيد بيان لذلك.

(٣) تاريخ الإسلام د: حسن إبراهيم، ص٢/٩ ط ٤.

(٤) السابق ص٩ ط٤.

وهنا نجد أن ثمة سببًا تاريخيًا يتسم بالصدفة تقدم ليفسح للعباسيين حق العمل من أجل السعى وراءَ الظفر بالخلافة من الأمويين والعلويين معًا.

ويرى المؤرخون أن أبا هاشم العلوى عدل عن أهل بيته من العلويين واتجه إلى أبناءِ العباس لكى يحملوا عبءَ طلب الخلافة والنهوض بها والسبب فى ذلك فيما يبدو «أن العباسيين كانوا فى أواخر القرن الأول للهجرة أكثر كفاية ونشاطًا فى الناحية السياسية من العلويين وأكثر تطلعًا منهم إلى النفوذ والسلطان»[1].

هذا بالإضافة إلى ما يقال من أن أبا هاشم لم يجد بين أفراد البيت العلوى من يستطيع النهوض بأعباءِ الخلافة وإمامة المسلمين[2].

وهناك مسألة جديرة بالملاحظة وهى أن نزول أبى هاشم للعباسيين لا يُعدّ بحق نزولا من العلويين للعباسين عن حق الخلافة والإمامة؛ ولذلك فإن فريقًا كبيرًا من العلويين ظل متمسكًا بعقائد الشيعة الإمامية ووقفوا صامدين فى وجه العباسيين أولئك الذين سلبوهم جهادهم وكفاحهم فى الحصول على الخلافة[3].

تنظيم الدعوة العباسية وتولى الخلافة:

رأى محمد بن على بن عبد الله بن العباس أن نقل السلطة إلى العباسيين لا بد له من تخطيط وتنظيم وإحكام للحيطة، لأنه أولاً سوف يعتمد على دعاة الشيعة العلويين، دون علم منهم بأنهم يجاهدون فى سبيل العباسيين، بل علمهم ومطمح آمالهم أن تنتقل الخلافة إلى العلويين، فتلك غايتهم بل عقيدتهم التى يموتون فى سبيلها، ولكن محمد ابن على العباس خطط ودبر لاستخدام الدعاة والنقباء من الشيعة العلوية، وفى الوقت ذاته أخذ بشدّة دهائه يضيف إليهم دعاة ونقباء بل قادة جددًا فى الدعوة للعباسيين، ولكنهم جميعًا ينشرون دعوتهم تحت شعار «الرضا من آل محمد» فهذا الشعار يشمل العلويين أبناء على

(١، ٢) السابق ص١٠ ط٤.

(٣) السابق ص١٠ ط٤.

وفاطمة، وأبناء العباس وقد بدأت هذه الدعوة السرية فى أوائل القرن الثانى للهجرة، وقد ركز محمد بن على بن عبد الله العباسى دعاته فى خراسان، وقد شرح فى عبارة واضحة فكرته السياسية التحليلية عن ظروف نجاح دعوته أو فشلها بين أهالى الولايات الإسلامية المختلفة حيث يقول:

«أما الكوفة وسوادها فشيعة على، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكفّ، وأما الجزيرة فحرُورِيَّة[1] وأعراب كأعلاج، ومسلمون فى أخلاق النصارى، أما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بنى أمية، وعداوة راسخة وجهل مستراكم، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان؛ فإن هناك العددَ الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة، لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل، ولم يقدح فيها فساد، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل، وهامات ولحى، وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة، وبعد فإنى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق»[2].

هكذا بدأت الدعوة سرية من الحميمة فى أوائل القرن الثانى فى عهد عمر بن عبد العزيز، وأرسل محمد بن على العباسى دعاته سرًا إلى خراسان متظاهرين بالتجارة واستطاع واحد منهم هو «أبو عكرمة» أن يختار سبعين داعية للعباسيين منهم اثنا عشر نقيبًا، ولكنهم كما تقرر من قبل يدعون «للرضا من آل محمد».

وفى عام ١٢٥ هـ مات الإمام محمد بن على العباسى، وكانت الدعوة السرية بجهوده وتدبيره ورجاله قد قطعت شوطًا بعيدًا وقد أوصى بالإمامة بعده لابنه (إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس).

وفى عهد ابراهيم هذا تم الاتصال بذلك الشاب الشجاع ذى السطع والطموح والقوة وهو أبو مسلم الخراسانى[3] وبانضمامه إلى الدعاة العباسيين دخل

(١) نسبة إلى قرية بظاهر الكوفة يقال لها حروراء نزل بها الخوارج وسموا حرورية.

(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ٣/ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٣) راجع عنه مروج الذهب للمسعودى ٣/٣٥٤ ط ٤ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، وانظر تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ٢/ص ١٤ - ١٥ ط ٤.

أمر هذه الدعوة فى طورها الثانى طور التدبير القوى والاستعداد للمواجهة واستثمار الظروف السياسية المختلفة لتداعى البيت الأموى، ومن بينها تصارع القوى العربية من يمنيّة ومضريّة حيث اشتعلت نيران العصبية بين القبائل فى خراسان، وعرف أبو مسلم بدهائه وذكائه كيف يستثمر ويستفيد من تلك الفرقة بين العرب فى خراسان، ويدل على شدة دهائه أنه رابط بجنده سبعة أشهر فى مدينة (مرو) قاعدة خراسان وظل يقرب الحوادث يؤرّث نار الفرقة بين القبائل المتنازعة، واستمال إلى صفوفه اليمانيين وتمكن من الاستيلاء على خراسان دون أن يهلك جنده، وبعد التمكن قضى على شيوخ القبائل المتنازعة فقتلهم جميعًا[1].

«وقد أدرك نصر بن سيار والى خراسان مدى خطر دعاة العباسيين فى هذه البلاد فأرسل إلى مروان بن محمد آخر خلفاءِ بنى أمية كتابًا يكشف له فيه عن قوة أبى مسلم وضعف الجند الأموى فى خراسان وختم كتابه بهذه الأبيات.

أرى بين الرماد وميض نار ... فأحرِ بأن يكون له ضرامُ
فإن النار بالعودين تذكو ... وإن الحرب أولها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام»؟![2]

ثم صار أمر الإمام ابراهيم بن محمد بن على العباسى إلى الانكشاف حيث وقع فى يد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية كتابُ ابراهيم إلى أبى مسلم الخرسانى الذى يأمر فيه بقتل كل من يتكلم العربية بخراسان، فقبض عليه الخليفة الأموى مروان بن محمد وسجنه فى (حرّان) وقتله، ولما علم إبراهيم بنهايته عهد بأمر الدعوة والدولة المرتقبة إلى أخيه (عبد الله بن محمد بن على العباسى) الذى عرف فيما بعد بأبى عبد الله السفاح.

وفى عهد أبى العباس عبد الله بن محمد هذا تمت المواجهة بين العباسيين والأمويين وفر الخليفة الأموى مروان بن محمد إلى مصر وتم قتله على أيدى

---

(١) راجع تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ص ١٤/٢ - ١٥ ط ٤.
(٢) السابق ص ١٥ - ١٦.

العباسيين بقرية «بوصير» من أعمال الفيوم وبذلك انتهت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية[١].

والملاحظ بوضوح أن الدعوة السرية للرضا من آل البيت وجدت استجابة قوية لدى كثير من الفرس الموالى؛ لأنهم كانوا يتوقون إلى التخلص من مظالم الأمويين، وتعاليهم عليهم ونكالهم بهم.

وهناك سبب دينى سياسى تنبغى الإشارة إليه فى هذا السياق حيث يرى المؤرخ «جوبينو» أن نظرية الحق الإلهى وحصرها فى البيت الساسانى كان لها تأثير عظيم فى تاريخ الفرس فى العصور التى تلتها، ولقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية بطبيعتها مع ديمقراطية العرب، غير أنها لا يمكن أن تظهر فى نظر الفرس إلا بمظهر ثورى غير مطابق لطبائع الأشياء. أضف إلى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهية التى أضمرها هؤلاء الفرس لعمر (رضى الله عنه) ثانى الخلفاء الراشدين ومقوِّض دعائم الإمبراطورية الفارسية، وأن هذه النزعة وإن تسترت بستار الدين فلن يفوت الباحث تفهُّم أسرارها ومرماها، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الحسين وهو أصغر ولد فاطمة بنت النبى (عليه السلام).. قالوا إنه تزوج من «شهربانوه» ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان، ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقسميه: طائفة الإثنا عشرية الشائعة الآن فى بلاد فارس، وطائفة السبعية أو الاسماعيلية لا يمثلون حق النبوة فقط بل يمثلون الملك أيضًا لأنهم من سلالة النبى محمد «عليه السلام» وآل ساسان معًا»[٢].

من كل ذلك تولّدت لدى الفرس النظرية السياسية التى يشير إليها «جوبينو» فى العبارة الآتية: «وكانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس وهى أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج وذلك بصفتهم المزدوجة لكونهم وارث آل ساسان من جهة أمهم «شهربانوه» ابنة

(١) انظر تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ٢/١٥ - ١٧

(٢) تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ٢/١٢ - ١٣

يزدجرد آخر ملوك الفرس والأئمة رؤساء هذا الدين حقًا»[1].

وهكذا التقت عواطف الموالى مع العلويين بسبب الاضطهاد الواقع عليهما من الأمويين، والتقت العقائد السياسية والدينية فى الهدف والنتيجة وإن اختلفت فى السبب والدافع لكنها تلتقى عند الإيمان بحق العلويين فى الخلافة؛ ولذلك وجد دعاة الشيعة بيئة خصبة لدى الموالى، بل وجدوا فيهم العضد والجند الذين انتزعوا لدعوتهم النصر ضد الأمويين.

ويجب أن نتذكر فى هذا السياق التاريخى أن عوامل الضعف كانت قد باشرت فعلها فى البيت الأموى ذاته فالوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى ولى الخلافة (١٢٥ - ١٢٦ هـ) كان فاسدًا مدمنًا للخمر منادمًا للفساق والمغانى، وكان قد أرهق الناس بفساده ومظالمه كأبيه من قبل.

وقد صور المسعودى الأسباب التى أدت إلى زوال ملك بنى أمية حيث يقول: وذكر المنقرى قال: «سئل بعض شيوخ بنى أمية ومحصليها[2] عقب زوال الملك عنهم إلى بنى العباس: ما كان سبب زوال ملككم؟ قال إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوْا الراحة منا؛ وتُحومِل على أهل خراجنا فتخلوا عنا، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثرُوا مرافقهم على منافعنا، وأمضوْا أمورًا دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاءُ جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتظاهروا معهم على حربنا، وطلبَنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا»[3].

ومن الأحداث المباشرة فى سقوط بنى أمية انتشار روح العصبية فى المجتمع العربى، وقد سبق أن رأينا كيف استثمر أبو مسلم الخراسانى الخلاف بل القتال بين القبائل المضرية واليمنية بخرسان.

---

(١) تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ص ١٣/٢.

(٢) أى العارفين بتاريخهم وأخبارهم.

(٣) مروج الذهب للمسعودى ٤٣١/٣ ط ٤ تحقيق محمى الدين عبد الحميد.

وهناك ملاحظة هامة يجب التنبيه إليها وهى أن العباسيين كان لهم أنصار يتشيعون لهم وهم « الراوندية » يقول المسعودى :

« الراوندية - وهم شيعة ولد العباس ابن عبد المطلب من أهل خرسان وغيرهم - (يرون) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِض وأن أحق الناس بالإمامة بعده العباس ابن عبد المطلب لأنه عمه ووارثه، وعصبته، لقول الله عز وجل : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » وأن الناس اغتصبوه حقه، وظلموه أمره إلى أن رده الله إليهم..

« وأجازوا بيعة على بن أبى طالب رضى الله عنه بإجازته[1] لها ولذلك لقوله : يا ابن أخى[2] هلم إلى أن أبايعك فلا يختلف عليك اثنان. ولقول داود بن علىّ على منبر الكوفة يوم بويع لأبى العباس : يا أهل الكوفة لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على بن أبى طالب وهذا القائم فيكم - يعنى أبا العباس السفاح »[3].

وهذا يدل على أنه لم يكن فى البداية ثمة نزاع بين العلويين والعباسيين بل هم أبناءُ عمومة رضوا فى البداية جميعًا مبايعة علىّ، ولكن عندما تشيع الناس وتحزبوا فيما بعد ظهر من يرون أحقية ولد العباس بالخلافة، ولكن الناس إبان العمل السرى لدعاة الشيعة كانوا لا يحسون قادمًا جديدًا للخلافة إلا من أبناء فاطمة الزهراء، لدرجة أن « أبا سلمة الخلال » وهو وزير آل محمد أى وزير الدولة الجديدة والحكومة الجديدة التى ظهرت إثر سقوط الأمويين وخلال المعارك معهم رأى أن يختار للخلافة واحدًا من أحفاد على بن أبى طالب وأخفى هذه النية، وكان جنود الفرس من أهل خراسان الذين يقومون بعبء إسقاط الأمويين لا يعرفون شيئاً عن أمر آل العباس، وأحس أبو العباس عبد الله

---

(١) الضمير فى قوله بإجازته : المقصود به : العباس بن عبدالمطلب.

(٢) يعنى « على بن أبى طالب ».

(٣) مروج الذهب ٢٥٢/٣ ط ٤ محيى الدين. وانظر عن زندقتهم تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ٢ / ٩١-٩٣

ابن محمد (الذى عرف فيما بعد بالسفاح) بنوايا أبى سلمة الخلال، لأنه عندما نزل أبو العباس وأعمامه الكوفة أخفى أبو سلة أمره عن الناس وعزله عزلاً تامًا عنهم، فأحس أبو العباس الخشية من موقف أبى سلمة الخلال، فوجه إلى أبى مسلم الخراسانى من أطلعه على نوايا أبى سلمة الخلال[1]، فأرسل أبو مسلم إلى أبى العباس وفدًا من زعماء الدعوة بخراسان سلموا عليه بالخلافة، واتجه أبو العباس من توّه إلى مسجد الكوفة الجامع فبايعه الناس، وارتقى المنبر وخطب الناس فإذا به يحتج بآى القرآن الكريم على أن بيتة العباسى أحق بالخلافة من غيره أى من العلويين.

وفى هذا الجو الذى تكشفت فيه قوة أبى العباس وشدة ذكائه وقوة إرادته اضطر أبو سلمة أن يعلن تأييده له، ومن المفيد لنا ونحن بصدد دراسة الأدب فى هذا العصر أن نورد نص خطبة أبى العباس فى مسجد الكوفة لنتبين منها فكرة البيت العباسى فى أحقيته بالخلافة من الناحية الشرعية. وهذا نصها كما أورده - الطبرى[2] : يقول : «إن أبا العباس لما صعد المنبر حين بُويع له بالخلافة قام فى أعلاه وصعد داود بن على فقام دونه، فتكلم أبو العباس فقال : الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة، وشرفه وعظمه واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله، وكهفه وحصنه، والقوّام به، والذابّين عنه، والناصرين له وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلَها وخصّنا برحم رسول الله وقرابته، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتَقّنا من نَبْعته. جعله من أنفسنا، عزيزاً عليه ما عنتنا[3] حريصاً علينا بالمؤمنين رءوفًا رحيما، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال عزّ من قائل فيما أنزل من محكم القرآن : «إنما يريد الله ليذهب عنكم

(١) راجع تفاصيل هذا الموقف فى الطبرى ٩/١٢٨-١٢٩ ط اول.

(٢) الطبرى ٩/١٢٥-١٢٦ ط اول.

(٣) يعنى يعز عليه أن نقع فى أمر شاق يشير إلى قوله تعالى : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» آخر سورة التوبة.

الرجس[1] أهل البيت ويطهركم تطهيرا». وقال: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودةَ فى القُرْبَى» وقال: «وأنذر عشيرتك الأقربين». وقال: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرّسولِ ولذى القربى واليتامى». وقال: «واعلموا أنما غنمتم من شيءٍ فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى» فأعلمهم جل فضْلنا، وأوجب عليهم حقّنا ومودتَنا، وأجْزَلَ من الفْء والغنيمة نصيبنا، تكْرِمة لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم، وزعمت السبئيةُ الضُلال أن غيرنا أحقُ بالرياسةِ والسياسةِ والخلافةِ منا، فشاهتْ وجوهُهُم بَم ولِم، أيها الناس؟! وبنا هدى الله الناسَ بعد ضلالَتِهم، وبصّرهم بعد جهلتهم وأنقذهم بعد هَلَكَتِهِمْ، وأظهر بنا الحق، وأدْحض بنا الباطل، وأصلحَ بنا منْهم ما كان فاسدًا، ورفع بنا الخسيسةَ، وتمّم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبرّ ومُواساة فى دينهم ودنياهم، وإخوانًا على سَرٍر متقابلين فى آخرتهم. فتح الله ذلك منةً ومنحة لمحمد صلى الله عليه وسلم. فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابُه، وأمْرُهم شورى بينهم فَحَوَوْا مواريث الأمم، فعدّلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها. وخَرجُوا خَماصًا[2] منها، ثم وثَبَ بنو حرب ومروان فابتزوها، وتداولوها بينهم، فجارُوا فيها، واستأثرُوا بها وظلمُوا أهلَها فأملى الله لهم حينا حتى آسفُوه[3] فلما آسفُوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقّنا وتدَارَك بِنَا أُمّتَنا، وولى نَصْرنا والقيام بأمرنا، ليُمنّ بنا على الذين استُضْعِفُوا فى الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإنى لأرجو أن لا يأتيكم الجورُ من حيثُ أتاكم الخيرُ، ولا الفسادُ من حيثُ جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة أنتم محلُ محبتنا ومنزلُ مودّتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يُثْنِكم عن ذلك تحامُل الجورِ عليكم، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعدُ الناس بِنَا وأكرمُهم

---

(١) الغدر أو العقاب أو الغضب.

(٢) خماصاً: اى جياعًا من المخمصة وهى الجوع.

(٣) اغضبوه.

علينا، وقد زدتكم فى أعطياتِكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السَّفاحُ المُبيحُ والثائرُ المُبِيرُ»[١].

وكان مُوَعّكاً فاشتد به الوَعَكُ فجلس على المنبر، وصعد داودُ بنُ علىّ فقام دونه على مراقى المنبر فقال الحمد لله[٢]» وأخذ يخطب الناس ويقول قولاً على نسق كلام أبى العباس ينتصف فيه للعباسيين وللناس من بنى أمية، ويكشف عن مظالمهم وعن نقمة الله منهم ويؤمن الناس على حقوقهم، ويهنئهم بنعمة الله عليهم حيث رد الخلافة إلى آل بيت النبى عليه السلام، ويطمئنهم على إحقاق الحق ويشيد بالكوفة وأهلها وأهل خراسان.

ويلفتنا فى كلام داود بن على قوله: «ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد وأشار بيده إلى أبى العباس»[٣] فهذه العبارة توضح أن داود يدين بعقيدة الشيعة الحرورية التى تتشيع للعباسيين، وتكشف عن طبيعة علاقة العباسيين بالعلويين قبل هذا اليوم، وفيه تنبيه للعلويين بأنه يجب عليهم أن يبايعو اليوم العباسيين بالخلافة كما بايع ابن العباس علىّ بن أبى طالب من قبل ولم ينكر عليه أمر الخلافة، ويجب إذن أن يقابل الوفاءُ القديم بوفاءٍ جديد.

وبعد أن انتهى داود بن علىّ نزل أبو العباس وداود بن على أمامه وجلس أبو جعفر بالمسجد ليأخذ البيعة من الناس فلم يزل يأخذها حتى صلى بهم المغرب. وبعد تمام البيعة تحول أبو العباس السفاح من الكوفة إلى الأنبار وبينها وبين بغداد عشرة فراسخ وانتهى به الأمر إلى تجديدها وبنائها واتخذها عاصمة لملكه.

---

(١) ويمكن مراجعة النص فى جمهرة خطب العرب ٦/١ - ٨ وتاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ص ٢/٢١.

(٢) الطبرى ١٢٦/٩. وجمهرة خطب العرب ٨/٣.

(٣) الطبرى ١٢٧/٩. وجمهرة خطب العرب ١٠/٣.

وهنا نتبين فرقًا هامًا فى إدارة الدولة إذ كانت عاصمة الأمويين «فى دمشق على حدود بادية العرب وكان خلفاء تلك الدولة عربًا وجنودها وقوادها وعمالها من العرب، وكذلك كتابها وقضاتها وسائر رجال حكومتها.

أما الدولة العباسية فقد نصرها الفرس فجعلت قصبتها (بغداد) على حدود بلادهم واتخذت وزراءها وأكثر أمرائها وقوادها منهم، ولما عمرت بغداد تقاطر إليها الناس للارتزاق بالتجارة أو الصناعة أو الأدب أو الشعر أو بأسباب الملاهى. فالتقى فيها العرب والفارسى والرومى والنبطى والتركى والصقلبى والهندى والبربرى والزنجى وفيهم المسلم والنصرانى واليهودى والصابئ والسامرى والمجوسى والبوذى وغيرهم... وما زالت البصرة والكوفة مجتمع أهل الأدب حتى العلم والشعر حتى عمرت بغداد فأصبحت بما استبحر من عمرانها هى وحدها أم المدائن الإسلامية وبؤرة العلم ومجتمع العلماء، ثم شاركتها فى ذلك القاهرة وقرطبة ودمشق والقيروان وغيرها»[1].

ونعود إلى أبى العباس السفاح فنشير إلى أنه قضى معظم عهده فى محاربة العرب الذين ناصروا بنى أمية وقضى على أعقاب الأمويين ولم يفلت منهم أحد إلا عبد الرحمن الداخل الذى أسس الدولة الأموية ببلاد الأندلس، وكذلك وجه السفاح همته إلى الفتك بمن والوه وساعدوه على تأسيس دولته فتقتل أبا سلمة الخلال، وهمّ بقتل أبى مسلم لولا أن عاجلته منيته[2].

ثم جاء أبو جعفر المنصور سنة ١٣٧ وقتل أبا مسلم، وأبو جعفر المنصور كأخيه السفاح كان رجلاً قويًا مقنعًا حتى فى عنفه وإجراءاته القوية لحماية الدولة وهذه خطبته التى خطب بها الناس بالمدائن بعد قتل أبى مسلم، وبالمقارنة كأنما هى قطعة من خطبة أخيه السفاح التى أوردناها آنفاً عند أخذ البيعة لنفسه. يقول أبو جعفر المنصور:

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جرجى زيدان ٢/٢٠-٢١ طبعة دار الهلال مراجعة وتعليق د. شوقى ضيف.

(٢) تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ص ٢/٢١.

«أيها الناس لا تخرجوا من أُنسِ الطاعة إلى وحشة المعصية ولا تُسِرّوا غش الأئمة فإنه لم يسرّ أحد قط منكرة إلا ظهرت فى آثار يده، أو فلتات لسانه، وأبدَاها الله للإمامة بإعزاز دينه وإعلاءِ حقه. إنّا لن نبخسكم حقوقَكم، ولن نبخس الدينَ حقه عليكم، إنه مَنْ نازعنا عُرْوة هذا القميص أَجْزَرْناه حبيءَ هذا الغمد، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه - ثم نكث بنا، فحَكّمنَا عليه حكمه على غيره لنا - ولم تَمْنعنا رعايةُ الحقِ له من إقامة الحقِ عليه»[1].

وهكذا كان الولاة العرب يقبضون على زمان الخلافة وناصية الدولة بأيديهم مع أن أعوانهم ووزراءهم من الموالى الفرس، ولكن شدة تمكن الفرس من أجهزة الدولة لم يكن له أدنى تأثير على قوة الخلافة لدرجة أنَ الرشيد نكّل بالبرامكة مع كثرة عددهم وسيطرتهم التامة على شئون الدولة، وهذه السمة كانت طابعًا عامًا للخلفاء العباسيين حتى ولاية المعتصم.

(١) الطبرى ٩/٣١٣. وجمهرة خطب العرب ٣/٣١ ط٢ سنة ١٩٦٢ (وكان اعتمادنا دائما على الطبرى رغم وثاقة هذا الأخير).

المبحث الثالث

ملامح عامة عن الخلافة والخلفاء

نقصد هنا إلى توضيح بعض الملامح العامة لشخصيات الخلفاء الكبار فى الدولة العباسية لاسيما فى عصرها السياسى الأول، وسوف نتوقف عند شخصية هارون الرشيد صاحب قضية: العصر الذهبى.

وقيمة هذا التوضيح فى هذه الدراسة أنه يضع أيدينا على بعض السمات العامة والخصائص المشتركة التى تمثل مفتاح الفهم لطبيعة الحكم، ونوع الاتجاه الغالب على الدولة فى حياتها السياسية والاجتماعية والثقافية، وهذا بدوره يوضح لنا العوامل التى أثرت بل وجهت الحياة العباسية وحركة المجتمع البشرى فيها، وبالتالى تركت أثرها وطابعها فى توجيه الحياة الفكرية والثقافية بصفة عامة، والأدبية بصفة خاصة، وعند التمحيص سنجد أنها شكلت مفردات المعانى داخل الموضوعات العامة والخاصة التى تناولها الشعراء.

والدراسة التى نقدمها هنا ليست دراسة تاريخية بالمعنى المعهود فى دراسة التاريخ بل هى بالأحرى أضواء مختارة من المواد التاريخية فى حياة الخلفاء العباسيين الكبار، نعرضها عرضا القصد منه خدمة الدراسة الأدبية، فما تزال دراسة التاريخ الأدبى تنفرد برؤية خاصة فى فهم التاريخ العام وتحليله: لأن مؤرخ الأدب مؤرخ لفرع من فروع الحضارة الفكرية والفنية[1]، وهذا الفرع لايستوعب فقط قطاعا من الحياة الفكرية والفنية، بل يستوعب حياة الإنسان بكل أبعادها المادية والفكرية والشعورية، وهو سجل عبقرى للحياة الإنسانية فى

(١) انظر فى علاقة التاريخ العام بتاريخ الأدب: منهج البحث فى الأدب واللغة تأليف لانسون ترجمة د. محمد مندور ص ١٩ ومابعدها ١٩٤٦ بيروت.

وانظر أيضا: نظرية الأنواع الأدبية ترجمة د. حسن عثمان المجلد الثانى ص ١٣ وما بعدها. ط١٩٥٨.

شتى أبعادها وهو الذى يستطيع أن يصور من ملامح الحياة وأسرارها الكثير مما يضيع أو يُهمل فى التاريخ العام نتيجة القهر السياسى والاجتماعى المتعدد الأشكال والمعقد الأساليب والذى لاتنهض وثيقة تاريخية بتصويره غير الأدب، ومن ثم فهذا الفرع من تاريخ الحضارة له رؤية ذات منازع معقدة متشابكة تملى على مؤرخه قراءة التاريخ العام وتحليله بما يساعد على فهم الحياة الأدبية والعوامل المؤثرة فيها.

ومن ثم فإن هذه الفصلة من بحثنا يستطيع معها قارئ التاريخ الأدبى فى بقية الكتاب أن يعلل ويحلل الظواهر الأدبية التى ملأت الساحة، وتباينت سماتها وملامحها فى الفترات المختلفة التى يجمعها العصر العباسى فيما يربو على خمسة قرون.

وابتداءً فلابد أن نتذكر الرجال الأوائل الذين قاموا بعبء النهوض بالدعوة العباسية منذ آلت إليهم، وأولهم محمد بن على بن عبد الله بن العباس، على نحو ما شرحنا سابقا، فدوره فى نشر الدعوة السرية يحتاج إلى إيمان قوى بالدعوة التى عاش يدفع حركتها فى الخفاء، وهذا الخفاء نفسه يحتاج إلى قوة مراس وشدة تنبه، وبعد نظر لفهم كل الملابسات السياسية والاجتماعية والأخلاقية لأنه يتعامل مع الأفراد والمجتمع والدولة تعاملا يمارس فيه لعبة الحياة والموت، له ولكل أنصاره وأتباعه الذين يمكن أن ينكشف أمرهم، وقد قام بهذا الدور بعد محمد هذا ابنه ابراهيم، وقد اكتُشِف أمره بالفعل عن طريق اكتشاف خبر كتابه السرى إلى أبى مسلم الخراسانى الذى يأمره فيه بقتل كل من يتكلّم العربية بأرض خراسان.

ولكن الجدير بالملاحظة فى تاريخ هذه الحركة الشيعية السرية أنها استمرت، فقد تولى بعده ابنه إبراهيم ثم أخوه عبد الله الذى أصبح أول خليفة عباسى، وعرف بأبى العباس السفاح، وبداية الخيط تكمن فى أنها أسرة ذات جلد وقدرة على التدبير وبراعة فى القياد ة فى السر والعلن، وهى تعرف الوفاء والعطاء لمن يقف إلى جانبها وتسرف فى البطش إذ تشككت فى النوايا، فضلا عن ضبط الوقائع وظهور الملابسات.

ونستطيع أن نتبين الصفات العامة والهامة لأبناء هذه الأسرة حينما نراها تباشر دورها على المسرح السياسى للدولة :

١ - أبو عبدالله السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ)[١] :

كان السفاح رجلا وسيما جميل الخلقة ويقول الطبرى : «كان فيما ذُكِر ذا شعرة جعدة وكان طويلا أبيض، أقنى الأنف حسن الوجه واللحية»[٢].

ويقول الفخرى (ص ١٣٤) : «إنه كان كريما حليما وقورا، عاقلا كاملا، كثير الحياء حسن الأخلاق» ويقول السيوطى فى تاريخ الخلفاء (ص ١٧١) : «وكان السفاح أسخى الناس، ماوعد عدة فأخرها عن وقتها، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها.. وكان نقش خاتمه (الله ثقة عبدالله وبه يؤمن)، ويؤثر عنه قوله : «إن من أدنياء الناس ووضعائهم من عدّ البخل حزما والحلم ذلا.. والصبر حسن إلا على من أوقع الدين وأوهن السلطان، والأناة محمودة إلا عند إمكان الفرصة».

ويقول المسعودى : «ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبى العباس السفاح، وكان كثيرا ما يقول : «إنما العجب ممن يترك أن يزداد علما، ويختار أن يزداد جهلا»[٣].

وكان السفاح يسمع الغناء والموسيق من وراء الستر ويصيح بالمطرب أحسنت والله فأعد هذا الصوت، وكان لاينصرف عنه أحد من ندمائه ولامطربيه إلا بصلة من مال.

وكان عظيم الوفاء لزوجته أم سلمة، كبير التقدير لها[٤].

ومن جملة أخباره، ندرك أنه رجل مكتمل الشخصية قويها، صاحب فكر ونظر فى المسائل، وأنه يفرق بين المعنى ونقيضه الذى يلتبس به، وأنه صاحب

---

(١) راجع الطبرى ١٢٣/٩ (١٣٢).

(٢) السابق ١٥٤/٩.

(٣) مروج الذهب ٢١٧/٢.

(٤) راجع تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ٢١/٢ - ٢٤.

عطاء، راغب فى تطهير نفسه بالمعرفة والترفيه، وأنه صاحب مودة ومؤانسة، وصاحب عزم وحزم، وحلم ووفاء للأوفياء، وصاحب احتراس إذا شك، وبطش إذا غضب، أو رَهِب.

وجل هذه الصفات سوف نجدها تمثل القاسم المشترك الأعظم مع تفاوت فى الدرجة بين بقية خلفاء هذا البيت.

٢ - أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) [١]:

كان شديد البأس حادّ اليقظة صاحب حزم واهتمام بمصالح الرعية.

يقول عنه الطبرى[٢]: «كان المنصور أسمر طويلا نحيفا، خفيف العارضين».

وكان يوزع يومه على تبعات عمله فى صدر النهار ينظر فى أمور الدولة فإذا صلى العصر جلس مع أهل بيته، وبعد صلاة العشاء ينظر فيما يرد إليه من كتب الولايات والثغور ويشاور وزراءه ورجال دولته، فإذا انتهى انصرف إلى المسامرة، ثم يذهب إلى فراشه بعد الثلث الأول وينام الثلث الثانى، ثم يقوم فيتوضأ ويجلس فى محرابه إلى مطلع الفجر، ثم يخرج فيصلى بالناس، ثم يذهب إلى ديوان عمله ليبدأ يومه.

وكان مشهورًا بالجد ولم يعرف عنه الميل إلى اللهو أو العبث، وكان يكره ظلم الرعية ويدفع مظالم الولاة عن الأفراد، وكان يكره سفك الدماء إلا بحق يراه، وكان يكره العقاب لريبة أو ظِنّه وإنما بثبوت التهمة.

وكان المنصور شديد الثبات عند الشدائد، وكانت كثيرةٌ فى عهده، وقد مكنته هذه الصفة العالية من التغلب على من خرجوا عليه، من أبناء بيته وأبناءِ عمومته العلويين، وثبت أركان دولته بعد هبوب عاصفة شديدة عليها.

ولم يكن المنصور يبعثر أموال الدولة، بل كان يقتصد فى النفقة، ومما يحكى

---

(١) الطبرى ١٥٤/٩ (عام ١٣٦ هـ).

(٢) السابق ١٥٤/٩.

أن أحد أصدقائه قبل الخلافة زاره مرة وهو خليفة، ودار بينهما حديث، فعرف من صاحبه أن لديه زوجة وثلاث بنات، وأربعة مغازل لنسج الثياب، فقال له المنصور: «أنت أيسر العرب، أربع مغازل يدرن فى بيتك».

ومما يروى أنه راجع الحساب فى أجرة بناء قصره، فأنقص درهمًا فى كل وحدة عمل، فأصبح البنّاء وعمّاله مدينا فى ستة آلاف درهم، فاعتقله فى القصر حتى ردها، واشتهر بالتشدد فى محاسبة العمال والصناع، وكان يحاسبهم بخصم شيء من أجرتهم نظير التأخير فى الصباح، أو الانصراف المبكر من العمل، أو الراحة وقت الظهيرة.

ويقول المسعودى[1]: «كان يعطى الجزيل ما كان إعطاؤه حزمًا، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعا» وكان يقول: «لو أن عندى ألف بعير، وعندى بعير أجرب، لقمت عليه قيام من لا يملك غيره».

ولعل فى وصف صاحب الفخرى (ص١٤١ - ١٤٢) مايجمع أبرز سمات هذه الشخصية حيث يقول: «كان المنصور من عظماء الملوك، وحزمائهم وعقلائهم وعلمائهم، وذوى الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة، وقورا شديد الوفاء حسن الخلق فى الخلوة، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح، فإذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام تغير لونه واحمرت عيناه وانقلبت جميع أوصافه... وكان المنصور يلبس الخشن، وربما رقع قميصه» وعرف المنصور بالفصاحة وقوة الحجة.

لكن مسألة عدم إراقته للدماء إلا إذا رأى الحق فى ذلك ينبغى أن تفهم فى كل أمر بعيد عن سلامة الخلافة. أما إذا رأى مايعرض الخلافة لأدنى ملابسة من مكروه فإنه ما كان يتوانى فى القتل والسفك، وفى ضو هذه الحقية نفهم أسلوبه فى قتل أبى مسلم الخراسانى[2]، فهناك فرق بين حرصه على العدل

---

(١) مروج الذهب ٢/٢٤٥ - ٢٤٦.

(٢) السابق ص ٨٥ - ٨٩.

وعدم تعرض أحد لمظالم الولاة فى عهده، وحرصه على سلامة الدولة، وهو أمر يستدعى المبالغة فى الاحتراس ولذا جاءت الكتب مضطربة فيما ترويه عنه ثمرة تقول: وكان المنصور لايحب سفك الدماء، ومرة أخرى تقول: «إلا أنه يؤخذ على المنصور ميله إلى سفك الدماء»[1].

٣ - المهدى (١٥٨ - ١٦٩ هـ)[2]:

«كان فى العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إلى أبيه المنصور، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره أرسله أبوه على رأس جيش كبير للقضاء على فتنة عبد الرحمن بن عبد الجبار الأزدى والى خراسان».

ولما بويع بالخلافة تقبل العزاء فى أبيه والتهنئة لنفسه وكان خطيبًا بيّنًا، ولما تمت له البيعة خطب الناس فقال: «إن أمير المؤمنين عبد دُعى فأجاب، وأمر فأطاع - واغرورقت عيناه - فقال: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بكى عند فراق الأحبة. ولقد فارقتُ عظيمًا، وقُلدتُ جسيمًا، وعند الله أحتسبت أمير المؤمنين، وبه عز وجل أستعين على خلافة المسلمين» ثم ترقرق الدمع فى عين المهدى، ولم يتمكن من إطالة الخطبة لما شعر به من شدة الحزن[3].

وإذا صح القول بأن عهد تأسيس الدولة العباسية كان عهد الشدة والقمع فإن عهد المهدى كان عهد الاعتدال، وقد ذكر المؤرخون أنه رد الأموال التى صودرت فى عهد أبيه، كما أطلق سراح العلويين من سجنهم، ورد عليهم أرزاقهم، وأنفق الأموال الطائلة التى تركها أبوه فى كثير من وجوه الإصلاح، فبنى الأبنية فى طريق مكة، وأضاف إلى ما بناه أبوه فى الجهات الأخرى، وأجرى الأرزاق على بعض المسجونين وذوى الأمراض حتى يمتنع أذاهم ويكفوا عن سؤال الناس وعَدْواهم وبَنى أحواض السُّقاية حول الابار فى طريق

---

(١) راجع: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم، ٢/٢٩ - ٣٢.

(٢) الطبرى ٩/٢٢٣ (عام ١٥٨ هـ).

(٣) راجع تاريخ الإسلام، د. إبراهيم ٢/٣٦ - ٣٧.

القوافل، وأقام الأميال وجدد البريد، وجملة إصلاحاته أدت إلى سيادة العدل وانتشار الرخاء[١].

وقد صارت بغداد فى عصره قبلة الأنظار ومركزًا هامًا لتجارة العالم، وأصبحت الفنون والآداب من مميزات العصر وسماته اللامعة، والفنون والآداب تزدهر كثيرًا فى جو الأمن والرخاء والاستقرار ومع نهضة العلوم والمعارف وتكريم العلم والعلماء.

ومما يقال فى سعة يده «أن المنصور خلّف أربعة عشر مليون دينار وستمائة مليون درهم، ففرقها المهدى فى الناس سوى ما جبى فى أيامه»[٢].

وفى بعض ما رواه المسعودى وهو كثير[٣]، ما يوضح لنا طبيعة الحياة من الرفاهية والأمن، وتدلل الأدباء بحاجاتهم على المهدى، لدرجة أن أبا العتاهية كان يحب «عتبة؟ جارية «الخيزران»، «ولما كثر تشبيب أبى العتاهية بعتبة. شكت إلى مولاتها ما يلحقها من الشناعة، ودخل المهدى وهى تبكى بين يدى «الخيزران» فسألها عن خبرها فأخبرته، فأمر بإحضار أبى العتاهية.. فلما وقف بين يديه قال: أنت القائل فى عتبه:

الله بينى وبين مولاتى أبدت لى الصد والملامات

ومتى وصلتك حتى تشكو صدها عنك؟ قال: «يا أمير المؤمنين ما قلت ذلك بل أنا الذى قلت: وأنشد شعرًا فى مدح الخليفة، ثم يعود المهدى ويقول له: ألست القائل:

ألا ما لسيدتى ما لها أدلاً فأحمل إدلالها
وجارية من جوارى الملوك قد أسكن الحسن سربالها

---

(١) راجع تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ص٣٧ - ٣٨ جـ٢.

(٢) ضحى الإسلام ١٧/١ ط أولى.

وانظر حضارة الإسلام فى دار السلام ص٦٤ - ٩٠ جميل نخلة المدور، ط١٩٣٢ القاهرة.

(٣) مروج الذهب ٣٢٥/٣ وما بعدها، تحقيق محمد محى الدين.

ثم يسأل المهدى : وما علمك بما حواه سربالها؟ فأجابه مذكرًا إياه بمدائحه فيه :

أتتـه الخـلافة منقـــادة إليـه تجـرجر أذيـــالها
فـلم تَـكُ تصـلح إلا لـه ولم يـك يصـلح إلا لهـا

ثم سأله (المهدى) عن أشياء فأفحم أبو العتاهية فى الجواب فأمر المهدى بجلده نحوًا من حد، وأخرج مجلودًا، فلقيته عتبة وهو على تلك الحال. فقال :

بخٍ بخٍ ياعتبُ مـن أجلـكم قد قتـل المهـدى فيـكم قتيـلا

فترغرغت عيناها وفاض دمعها، وصادفها المهدى عند الخيزران، فقال : «ما لعتبة تبكى؟ قالوا له : رأت أبا العتاهية مجلودًا، وقال لها كيت وكيت، فأمر له بخمسين ألف درهم، ففرقها أبو العتاهية على من كان بسالباب. . . فوجه إليه (المهدى) : ما حملك على أن أكرمْتُك بكرامة فقسَّمتها؟ قال : ما كنت لأكل ثمن من أحببت فوجه إليه بخمسين ألف أخرى وحلف عليه ألا يفرقها فأخذها وانصرف[1].

ولكن أبعاد الإيحاء فى الموقف تتضح أكثر وأكثر فيما نعرف من أن أبا العتاهية لم يستسلم لليأس من محاولته وراء عتبة.

يقول المبرد : «أهدى أبو العتاهية إلى المهدى فى يوم (مهرجان) (صينية) فيها ثوب ممسك فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية :

نفسى بشىء من الدنيا معلقـةٌ الله والقـائم المهـدى يـكفيها
إنى لأيأس منها ثم يُـطمِعنى فيها احتقـارك للـدنيا ومـا فيهـا

فهمّ (المهدى) أن يدفع إلية عتبة، فقالت له : أمير المؤمنين مع حرمتى وحق وخدمتى تدفعنى إلى بائع جرار يكتسب بالشعر؟ فبعث إليه : أما عتبة فلا سبيل لك إليها. وقد أمرنا لك بملء البرنية (الصينية) مالا، فخرجت عتبة

(١) مروج الذهب ٣/٣٢٥ - ٣٢٦. تحقيق محمد محى الدين.

وهو يناظر الكتّاب، ويقول: إنما أمر لى بدنانير، وهم يقولون: بدراهم، فقالت: أما لو كنت عاشقًا لعتبة لشغلت عن العَيْن والورق[١].

فالقصة بأحداثها ورواياتها المختلفة تفيض بأنواع من الدلالات عن الرفاهية والطمأنينة وحرية الشعراء والجوارى فى رحاب الخلافة، وطبيعة العصر فى مزاجه العام ثقافيًا واجتماعيًا. ولا يكون مثل ذلك إلا حيث يكون الاستقرار السياسى والقبض على زمام الأمور والتطلع نحو حياة يواكب فيها الترفُ الحريةَ الشخصية، وتسمح السلطة رغم هيبتها بمداعبات الشعراء وعبثهم مع الجوارى المقربات فى بلاط القصر[٢].

وللمهدى أخبار متنوعة مع الشعراء، ورواة التاريخ، والنساك كلها تدل على أن عصره عصر فكر وثقافة وحرية كل ذلك فى ظل سلطة قابضة ودولة متمكنة.

٤ - موسى الهادى (١٦٩ - ١٧٠ هـ)[٣]:

هو ابن المهدى وقد عهد والده بالخلافة إليه ثم لأخيه هارون بعده، ثم فكر فى تقديم هارون عليه لأنه كان موضع الحب والإعجاب من أبيه المهدى، وأمه الخيزران، وكان الهادى عند وفاة أبيه فى ولاية (جرجان) فأخذ أخوه هارون البيعة له، وأرسل إليه بخاتم الملك وصولجانه، وكتب إليه معزيًا ومهنئًا، واستمر فى الخلافة سنة وثلاثة أشهر.

ومع أن هارون أخذ البيعة لأخيه وهو بعيد فى جرجان، فقد عزم الهادى على خلع أخيه هارون وأخذ البيعة لابنه جعفر، وقد استشار فى ذلك وزيره يحيى ابن خالد بن برمك، فأشار عليه بالتريث وأن يحتال للأمر لصغر ولده، ويروى

---

(١) مروج الذهب ٣/٣٢٦ - ٣٢٧. تحقيق محمد محى الدين.

(٢) سوف تأتى دراسة موسعة لأبى العتاهية فى زهده وغزله وكل ما يتصل بالمؤثرات فى تكوينه وفنه الشعرى.

(٣) الطبرى ١٠/٢١ (عام ١٦٩ هـ).

أنه قال له: «يا أمير المؤمنين. إن فعلت حملت الناس على نَكْث الأيمان ونقض العهود، وتجرأ الناس على مثل ذلك» وفى سياق آخر قاله له: «لو لم يكن المهدى بايع لهارون لوجب أن تبايع أنت له لئلا تخرج الخلافة من بنى أبيك»[1]، ورغم اقتناع الهادى بكلام وزيره يحيى فإنه كان شديد الرغبة فى جعل البيعة لابنه لدرجة أنه زج بيحيى البرمكى فى السجن زمانًا وهمّ بقتله.

وهارون الرشيد همّ بالاستجابة لأخيه الهادى فى النزول عن حقه فى الخلافة نظرًا لضيق أخيه عليه، ولكن يحيى البرمكى نصحه فى أن يستأذن أخاه فى السفر طلبًا للصيد، وبالفعل سافر وطال غيابه عند شاطئ الفرات فى بلاد الأنبار وأخذ الهادى يطلب عودته ويوبخه على ذلك ولكنه ظل بعيدًا عن قبضته حتى جاءه خبر نعيه.

هذا جانب من علاقة الهادى بأخيه الرشيد الذى كان فيما بعد فخر الخلافة العباسية. وهناك جانب آخر فى علاقة الهادى بأمه الخيزران.

يحكى المسعودى أن الهادى كان كثيرًا الطاعة لأمه الخيزران مجيبًا لها فيما تسأل من حوائج الناس، وكانت أمه ذات شخصية قوية، إذ كانت تقابل وجوه الدولة، وتتدخل فى إدارة الشئون، وضاق الهادى بتدخلها، وبالإقبال الشديد من ذوى المطالب والحاجات لدى الدولة عليها، فواجهها برفض مطالبها ورَفْضَ تدخلها، فقامت مُغضَبة من مجلسه، فقال لها: «مكانك فاستوعبى كلامى: والله، وإلا نُفِتُّ من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى، أو من خاصتى، أو من خدمى، لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التى تغدو إلى بابك كل يوم؟ أما لك مِغْزل يشغلك، أو مصحف يُذكّرك، أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم ولا ذمى. فانصرفت وما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بحلو ولامُرٍّ بعدها»[2].

---

(١) تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ٤١/٢.

(٢) مروج الذهب ٣٣٧/٣ - ٣٣٨.

ويروى الطبرى من أخباره أنه كان شديد القتل فى الزنادقة[١] ويبدو لهذا ولغيره وضوح السبب فى وصفه لدى المؤرخين القدامى بقولهم: «كان موسى الهادى قاسى القلب شرس الأخلاق صعب المرام، كثير الأدب محبًا له، وكان شديدًا شجاعًا بطلاً، جوادًا سخيًا»[٢].

أما صفاته القاسية فقد وقفنا على جانب من أخباره توضّحها، وأما حبه للأدب فإنه رغم شدته وقوة بأسه كان من أمره أن الذى يحاكم بين يديه إذا كان ذا فطنة فى الأدب وحب له وجد المخرج من العقوبة إلى حسن الصلة.

يروى أنه أحضر رجلاً وأخذ يذكّره بذنوبه فقال له الرجل:

فإن كنت ترجو فى العقوبة راحةً فلا تزهدنْ عند المعافاة فى الأجر

فأطلقه ووصله[٣].

وله مجالسات ومحاورات تدل على شدة رغبته فى التعرف على جمال المدن والأماكن، منها محاورته عن محاسن مصر ومساوئها، وكذلك دنقله ببلاد النوبة، والبصرة والكوفة[٤].

ومما يروى من أخباره أن والده وهبه سيفَ عمرو بن معدى كرب، فلما وَلِىَ الهادى الخلافة جاء بالسيف وبمكيال مملوء بالدنانير، وقال لحاجبه ائذن للشعراء، فلما دخلوا طلب إليهم أن يقولوا فى السيف فبدأ «ابن يامين البصرى» فقال:

حاز صَمْصَامةَ الزَّبيدى عمرو من جميع الأنام موسى الأمينُ

سيف عمرو، وكان فيما سمعنا خيرَ ما أُغمدت عليه الجفون

أُوقدت فوقه الصواعق نارًا ثم شابت فيه الذُّعافَ المنون

---

(١) الطبرى ١٠/٢٣.

(٢) مروج الذهب للمسعودى ٣/٣٣٥.

(٣) السابق ٣/٣٤٤.

(٤) مروج الذهب للمسعودى ٣/٣٣٩ - ٣٤٠.

وإذا ما شَهرْتَه تبهر الشمس م ضياءً فلم تكد تستبين
وكأن الفِرنْد والجوهر الجا ري فى صفحتيه ماءٌ معينُ
ما يبالى إذا الضريبة حانت أشمال سطت به أم يمين

فقال الهادى للشاعر لك السيف والمُكتل، فوزع المال على الشعراء، وقال لى فى السيف عوض، وبعث المهدى إلى الشاعر فاشترى منه السيف بخمسين ألفًا.

ويقول المسعودى (٣ - ٣٤٦) : «وللهادى أخبار حسان، وإن كانت أيامه قصرت، وقد أتينا على ذكرها فى كتابنا «أخبار الزمان، والأوسط»[1].

٥ - هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ)[2] :

يصفه البغدادى (٥/١٤) فيقول : «كان هارون أبيض طويلاً مُسَمَّنًا جميلاً».

ويقول الفخرى ١٧٧/١ - «كانت دولته من أحسن الدول، وأكثرها وقارًا ورونقًا وخيرًا، وأوسعها رقعة مملكة. جبى الرشيد معظم الدنيا.. ولم يجتمع على باب خليفة من العلماءِ والشعراءِ والفقاءِ والقراءِ، والقضاة والكتاب، والندماءِ والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة، ويرفعه إلى أعلى درجة. وكان فاضلاً شاعرًا راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتمييز، مهيبًا عند الخاصة والعامة».

فهذه النصوص وغيرها تكشف عن طبيعة ملكه فى القوة والسعة والإقتدار والتمكن والحضارة والرفاهية. وفى الوقت ذاته توضح لنا أبعاد هذه الشخصية فى

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ٣٣٤/٣ - ٣٤٦.
تاريخ الإسلام د.حسن إبراهيم ٣٩/٢ - ٤٤. وحضارة الإسلام فى دار السلام تأليف جميل نخلة المدور ص٨٧، ط ١٩٣٢ القاهرة.

(٢) راجع فى جملة أخباره : الطبرى ٢١/١٠ وما بعدها (عام ١٧٠هـ). وانظر : حضارة الإسلام فى دار السلام «جميل نخله المدور» ص٧٨ وما بعدها.

نواحٍ شتى من أهمها ما يتصل بالفكر والثقافة والأدب والفنون وشتى فروع الحضارة.

ومن يتعقب أخبار الرشيد على سعتها وتعدد مناحيها. يلاحظ أنه رجل يبلغ الغاية فى الجد واللهو، فى النهوض بالتبعة وفى التمتع بالحياة، وتقابُل هذين الطرفين فى شخصية دليل ثرائها المثالى والمادى معًا، وبعبارة أخرى دليل خصوبتها الخلاقة لكل معطيات الحياة من حولها، وآية قدرتها على التكيف الذى هو مصدر ثرائها ونبع سلامتها النفسية والفكرية.

ومثل هذه الشخصية لابد أن تتعدد جوانب العطاء فى تاريخها، وتكثر مشكلاتها، ويتلون نشاطها، ومثلها يحرك التاريخ معه، وهكذا كان الرشيد، ولا عجب بعد ذلك أن يوصف بأنه: صاحب العصر الذهبى.

وهناك أمور فى عصر الرشيد تلفت النظر وتستوجب التوقف عندها يكلها مصدر عطاءٍ للحياة الفكرية والأدبية لا سيما الشعر منها.

١ - تصدِّيه للفتن والثورات وقضاؤه عليها:

فى البداية نلاحظ أن الرشيد نقل مقر خلافته من (بغداد) إلى (الرَّقة) حتى يكون قريبًا من حدود الدولة البيزنطية، وحتى تكون دمشق العلوية تحت ناظريه.

وفى عهده جدد العلويون نشاطهم لاسترجاع الخلافة التى أخذها العباسيون بجهاد العلويين وقتلاهم وأنصارهم، إذ تصدى للخروج على الرشيد يحيى ابن عبدالله بن الحسن بن على بن أبى طالب، وكان ببلاد الديلم وهناك اشتدت شوكته، وقد وجه الرشيد إليه الفضل بن يحيى فى خمسين ألف رجل وانتهى الأمر بقبول يحيى العلوى الصلح على شرط أن يكتب له الرشيد أمانه بيده، وتحول الموقف إلى أن بحث الرشيد أمر هذا الأمان مع الفقهاء لنقضه

ورفض كبارهم نقض الأمان مثل محمد بن الحسن الشيبانى، ولكن رجلا يقال له «أبو البخترى» أفتى بنقض الأمان[١].

ويقال أيضًا إن يحيى العلوى وهو فى سجنه أقنع جعفر بن يحيى ابن خالد البرمكى بالصفح عنه وإطلاق سراحه، وفعلها جعفر البرمكى ثقة فى مكانته عند الرشيد ولكن هذه الفعلة كانت واحدة من أسباب فتك الرشيد بالبرامكة، وسوف يأتى بيانها[٢].

وقضى الرشيد على ثورات البربر فى أفريقية، وقضى كذلك على المنازعات الحادة والحروب الداخلية بسوريا بين اليمنيين والعدنانيين[٣]، وكذلك قضى الرشيد على ثورة الخوارج التى تزعمها الوليد بن طريف الشيبانى الذى دخل إلى أرمينية وأذربيجان وعبر نهر دجلة والفرات فبعث إليه الرشيد بقواته التى قضت عليه وقتلته.

ولعل من أبرز المواقف السياسية والحربية موقفه مع البيزنطيين حيث اعتدى الروم على أراضى الدولة مخالفين معاهدتهم مع المهدى، وخرج الرشيد إليهم بنفسه سنة ١٨١ هـ - فانتصر وطلبت «أرينى» الصلح على أن تدفع الجزية، ثم خُلعتْ هذه الملكة سنة ١٨٧ هـ، وتولى زمام الأمور بعدها وزير ماليتها (نقفور) ففسخ الصلح وكتب إلى الرشيد قائلًا: «من نقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب. أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرّخ، وأقامت نفسها مقام البَيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا أن تحمل أضعافه إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصل لك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك»[٤].

---

(١) راجع الطبرى ١٠/٥٥ وما بعدها.

(٢) الطبرى ١٠/٨١.

(٣) الطبرى ١٠/٥٩ - ٦٠.

(٤) الطبرى ١٠/٩٢.

«يقول ابن خلدون[1] فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه أو أن يخاطبه... ولم يقدر أحد من وزرائه على إبداء الرأى ثم تناول الكتاب وكتب على ظهره:

«بسم الله الرحمن الرحيم»، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، أما بعد فقد قرأت كتابك يا بن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام».

وفى اليوم نفسه تأهب الرشيد للقتال وخرج على رأس جيش كبير، وفى (هرقلة) انتصر على جيش الروم انتصارًا مبينًا واضطر (نقفور) أن يعقد الصلح وأن يدفع الجزية مضاعفة، ومرات كثيرة نقض (نقفور) العهد والصلح وانتصر عليه الرشيد فى كل مرة، لدرجة أن المؤرخين ينتقدون الرشيد فى عدم مضيّه إلى القضاء التام على الروم والاستيلاء على القسطنطينية عاصمة ملكهم[2].

ومما يروى فى أمر «نقفور» أنه بعد الانتصار الأول عليه ومغادرة الرشيد وجنده بلاد الروم نقض «نقفور» العهد، ظنًا منه أن برودة الجو وشدة الصقيع لن تمكن الرشيد من الرجوع بجنده لمحاربته مرة ثانية، وقد أبلغ المسئولون فى جند الرشيد الخبر إليه عن طريق واحد من الشعراء فى جنده هو أبو محمد عبد الله بن يوسف، ويقال هو الحجاج بن يوسف التميمى.

فلما فرغ من إنشاده بين يدى الرشيد قال: «أوَ قد فعل نقفور ذلك؟ وعلم أن الوزراء قد احتالوا له فى ذلك، فكرّ راجعًا فى أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضى وبلغ ما أراد»[3].

أما الشعر الذى قيل بين يدى الرشيد لإبلاغه خبر رجوع نقفور فمنه:

نقضَ الذى أعطيته نِقْفورُ ... وعليه دائرةُ البوار تدورُ

(١) ابن خلدون فيما قاله ينقل عن الطبرى ٩٢/١٠.

(٢) راجع فيما تقدم الدولة العباسية ص٧٤ - ٧٧ حسن خليفة ط١. وانظر فى المادة التاريخية للموضوع الطبرى ٩٢/١٠.

(٣) الطبرى ٩٢/١٠ - ٩٣.

أبشرْ أمير المؤمنين فإنه ... غُنْم أتاك به الإلهُ كبيرُ
فلقد تباشرتِ الرعيةُ أن أتَى ... بالنَّقْض عنه وافدٌ وبشير
ورجتْ يمينَك أن تُعجِّل غزوةً ... تشفى النفوسَ مكانُها مذْكور
أعطاكَ جزيتَه وطاطأ خدَّه ... حذر الصَّوارم، والرَّدى مَحْذور
فأجرْتَهُ من وقْعها وكأنَّها ... بأكفِّنا شُعَلُ الضِّرام تطير
وصرفتَ بالطَّولِ العساكر قافلا ... عنه، وجارُك آمنٌ مسرور
نقفور إنك حين تغدر أن نأى ... عنك الإمام لجاهل مغرور
إن الإمام على اقتسارك قادر ... قَرُبتْ ديارُك أم نأتْ بك دُورُ
ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً ... عما يدور بحزمه ويُدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه ... فعدوُّه أبدًا به مقهور
نُصْحُ الإمام على الأنام فريضة ... ولأهلها كفارة وطهور[1]

وعندما عاد الرشيد وأذل نقفور قال أبو العتاهية :

ألا نادتْ هِرقْلةُ بالخراب ... من الملك الموفَّق بالصواب
غدا هارونُ يَرعُدُ بالمنايا ... ويَبرُقُ بالمذكَّره القِضاب[2]
ورايات يحلُّ النصر فيها ... تمرُّ كأنها قطع السَّحاب
أميرَ المؤمنين ظفرتَ فاسلم ... وأبشر بالغنيمة والإياب[3]

البرامكة فى عهد الرشيد :

للبرامكة قصة أشبه بالروايات المثيرة منها بالحقائق الواقعة، وهى أدخل ما تكون فى خيال الروائيين الذين يعتمدون فى تشويقهم على الإثارة والمفارقة : فى الأحداث وشطحات الخيال، فى التسلية والترفيه والعظة والاعتبار. ومع ذلك فقد كان البرامكة واقعًا تاريخيًا عميقًا وعريضًا مؤثرًا ونفّاذا، وهذا الواقع جمع الطرفين المتباعدين فى الحياة وهما : قمة المجد والسؤدد ، وهاوية التشريد والضياع؛

(١) الطبرى ٩٢/١٠ - ٩٣.
(٢) المذكر : السيف ذو الرنق، والقضاب، والقضابة : من السيوف القطاع.
(٣) الطبرى : ٩٣/١٠.

إلى حد القتل والمصادرة دون وجود مساحة زمنية تسمح بالانحدار من قمة المجد إلى قاع الهاوية.

«وصدق الفخرى إذا يقول: إن دولة البرامكة كانت غرة فى جبهة الدهر، وتاجًا على مفرق العصر، ضربت بمكارمها الأمثال، وشُدَّت إليها الرِّحال ونيطت بها الآمال، وبَذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها، ومنحتها أوفر إسعادها، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة، والبحور زاخرة، والسيول دافعة، والغيوث ماطرة، أسواء الآداب عندهم نافقة، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية، والدنيا فى أيامهم عامرة، وأبهة ظاهرة، وهم ملجأ اللّهيف، ومُعتَصَم الطريد، ولهم يقول أبو نواس:

سلام على الدنيا إذا ما فُقِدتُم ... بنى برمكٍ من رائحين وغاد[1]

والبرامكة أسرة فارسية من مجوس بلخ، وكان جدها الأكبر يسمى «برمك» ويقال إن لفظة برمك ليست اسمًا لشخص «وإنما تدل على رتبة وراثية خاصة برئيس الكهان بمعبد «نوبهار» ببلخ، وكانت البرامكة تملك الأراضى التابعة للمعبد ويبلغ طولها ثمانية فراسخ، وعرضها أربعة، فكانت مساحتها أربعين وسبعمائة ميل مربع، ولم تزل هذه الممتلكات أو بعضها فى حوزة البرامكة فى الأيام التالية، ويقول ياقوت: إن قرية «روان» - الكبيرة الغنية - وهى شرق بلخ كانت فى حوزة يحيى بن خالد»[2].

ويعقد المؤرخون وجهًا للشبه بين برمك، وبين قُصىّ وأولاده من بعده فالأولون كانوا سدنة لنار فى معبدهم، وقصىّ وأبناؤه كانوا سدنة الكعبة فى الجاهلية. وكان هذا تاريخ البرامكة إلى أوائل القرن الثانى للهجرة، ولما دخل الإسلام بلاد فارس أسلم بنو برمك، وحينما ظهرت الدعوة للعباسيين بخراسان كان خالد بن برمك من أكبر أنصارها، وكان أكبر إخوانه، ولما استقر أمر

(١) راجع عصر المأمون المجلد الأول ص ١٣٥ - ١٣٦ د. احمد فريد الرفاعى ط ١٩٢٧.
(٢) السابق ص ١٣٦.

الخلافة فى عهد السفاح تقلد خالد الوزارة بعد مقتل أبى سلمة الخلال، ثم عينه المنصور وليًا على فارس ثم الموصل، وكان واليًا قديرًا، طيب السيرة، حسن التقدير، ومات فى خلافة المهدى، وكان قد أنجب ولده «يحيى» ورباه أفضل وأحسن تربية، وقد اختاره المهدى ليكون مربيًا لابنه هارون فأحسن القيام بمهمته، وكان شديد الإخلاص لأميره، وعندما فكر الهادى فى خلع أخيه هارون من ولاية العهد كان يحيى البرمكى يعالج الأمر بحكمة مع الهادى حتى تعرض لغضب الهادى وكاد يفتك به.

وعندما تولى هارون الرشيد الخلافة أسند إليه الوزارة وفوضه تفويضًا كاملًا فى تصريف شئون الدولة. يقول المسعودى «لما أفضت الخلافة إلى الرشيد دعا بيحيى بن خالد فقال له يا أبت: أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر ودفع إليه خاتمه»[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن يحيى البرمكى يُعدّ والدًا فى الرضاعة للرشيد لأن الفضل بن يحيى ولد قبل الرشيد بسبعة أيام فأرضعت أمه (وهى زينب بنت منير) الرشيدَ، وكذلك أرضعت والدة الرشيد «الخيزران» الفضلَ بلبان الرشيد[2].

وكان ليحيى بن خالد البرمكى خمسة أولاد هم: الفضل، وجعفر، وموسى، وخالد، ومحمد. وكانوا جميعًا من ذوى المكانة والرياسة فى حكم الرشيد، وقد استحق بنو جعفر الثناء والمدح بخصالهم المحمودة وفعالهم الطيبة، وقد كانوا موئل ذوى الحاجات ومقصد الشعراء والأدباء.

ولما ولد للرشيد الأمين عهد إلى الفضل بن يحيى بتربيته، وكان الفضل عضد أبيه وسنده، وكان ينوب عنه فى كبريات الأعمال وجلائل الأمور.

أما جعفر بن يحيى فقد كان الرشيد يحبه ويأنس إليه ويؤثره على أخيه

---

(١) مروج الذهب ٣٤٨/٩.

(٢) الطبرى ٤٨/١٠.

الفضل لسهولة أخلاقه، وكان فصيحًا بليغًا ذا فطنة مشهورًا بالحلم والكرم. وكان شديد الصلة بالرشيد منادمًا له[١] وقد قلده الرشيد مناصب ومسئوليات ليرفع من شأنه وذكره فى دولته[٢] وولاه وأبقاه إلى جانبه وعهد إليه بتربية ولده المأمون[٣].

ثم حدث أن تنازل يحيى عن منصب الوزارة لابنه الفضل ولكن الرشيد طلب إلى يحيى أن يطلب من الفضل التنازل عنها لأخيه جعفر فكتب يحيى إلى الفضل: «قد أمر أمير المؤمنين - أعلى الله أمره - أن تحوِّل الخاتم من يمينك إلى شمالك. فأجابه الفضل: قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين فى أخى. وما انتقلت منى نعمة صارت إليه، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه. فقال جعفر: لله درّ أخى ما أكيس نَفْسه، وأظهر دلائل الفضل عليه، وأقوى منَّة العقل عنده، وأوسع فى البلاغة ذرعه»[٤].

ومع ذلك كله فقد كان هؤلاء الأبناء الصفوة - الذين تعتمد عليهم الخلافة فى كثير من شئون الحكم والإدارة - فى مزاجهم العام والخاص يمثلون عصرهم، يروى لنا المسعودى رواية لها دلالاتها المختلفة على طبيعة هذا المزاج وطبيعة القواعد العامة التى تحكمه. يقول: «يحكى أنه ورد على الرشيد يومًا كتاب صاحب البريد بخراسان، ويحيى ابن خالد بين يديه، يذكر فيه أن الفضل بن يحيى تشاغل بالصيد وإدمان اللذات عن النظر فى أمور الرعية، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى، وقال له: يا أبت اقرأ هذا الكتاب، واكتب إليه كتابًا يردعه عن مثل هذا، فمد يده إلى دواة الرشيد وكتب إلى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد: حفظك الله يا بنى، وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين - ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر فى أمور الرعية - ما أنكره، فعاود ما هو أزين بك، فإنه من عاد إلى ما يزينه أو

(١) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ٢/٥٠.
(٢) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ٢/٥٠ - ٥٢.
(٣) الدولة العباسية حسن خليفة ص ٦٨.
(٤) الطبرى ١٠/.

ما يشينه لم يعرفه أهل دهره إلا به، والسلام. وكتب فى أسفله هذه الأبيات :

انْصَبْ نهارًا فى طِلاب العلا ... واصبر على فقد لقاءِ الحبيب
حتى إذا الليلُ بدا مُقبلا ... واستترت فيه وجوه العيوب
فبادر الليلَ بما تشتهى ... فإنما الليلُ نهار الأريب
كم من فتىً تحسبه ناسكًا ... يستقبل الليل بأمر عجيب
ألقى عليه الليلُ أستاره ... فبات فى لهوٍ وعيش خصيب
ولذةُ الأحمق مكشوفةٌ ... يسعى بها كل عدو ورقيب

والرشيد ينظر إلى ما يكتب يحيى فلما فرغ قال له أبلغت يا أبت فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهارًا إلى أن انصرف عن عمله»[1].

وهكذا كان رجال الدولة يخطئون ويُصوَّبون، ويبادرون إلى الرجوع إلى الصواب إرضاءً للصورة السياسية فى نظر الراعى والرعيّة وليس تحويلًا للطبائع عما جلبت عليه.

نكبة البرامكة :

إن حديث البرامكة فى عهد الرشيد حديث يطول ويشوق وتتشعب فيه النفس لهفة والفكر حيرة؛ ذلك أن أخبار حبهم للرشيد وحبّه لهم، وتفانيهم فى القيام بخدمته وإسرافه فى تكريمهم والثقة بهم، كلها ضرب من الخيال والقصص الشيق، الذى تتحول معه الأخبار إلى حكايات مسعدة يندر مثلها فى تاريخ العلاقات الإنسانية فى بلاط خليفة مهيب وخلافة واسعة.

ونفس القدر من الغرابة والندرة التى تتسم به هذه العلاقة فى الصداقة يتسم به - بل ربما أكثر - بطش الرشيد بهم بطشًا يحير الفهم، ويحبس الأنفاس دهشة وحسرة وأسى، ومثل هذه الكارثة ذات المفارقة الهائلة بين طرفى الحب والبطش تجعل من الصعب التحليل والفهم والاقتناع.

---

(١) مروج الذهب ٣/٢٧٧ - ٤٧٨.

ونظرًا لأن هذه ليست مبحثًا رئيسًا عندنا بل تهمنا فى دلالتها على طبيعة نوع الحكم، وطبيعة العلاقات الانسانية، وطبيعة الحوادث ذات التأثيرات الكبرى فى تكوين الأفكار والأمزجة وأنواع السلوك العام والخاص لدى الأفراد والجماعات، لأنها فى النهاية تلعب دورا فى تشكيل السلوك والوجدان واتجاه الفكر وتحليل الحوادث والتعايش معها لدى الأدبا والمفكرين فى تلك الفترة التى ندرس أدبها.

لهذا كله سوف نوجز فى تركيز الأسباب التى قيلت فى تفسير نكبة البرامكة وسوف نناقشها بما يبدو لنا:

وفى البداية نحتاج إلى ذلك النص من المسعودى الذى يقول فيه: «وكان مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة من استخلاف هارون الرشيد إلى أن قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يومًا، وقد رثتهم الشعراءُ بمراث كثيرة»[1].

إن هذه المدة الطويلة من تمتعهم بثقة الرشيد وحبه لهم لا سيما جعفر وأبوه يحيى. كل ذلك يجعل النظر فى الأسباب وتحليلها وقبولها ليس أمرا سهلاً.

والعجب هنا أنه يحسن بنا قبل عرض الأسباب وتحليلها أن ندرك فداحة نكبة البرامكة، ويتم ذلك إلى إذا قرأنا روايات المؤرخين عن أمر الرشيد بقتل جعفر البرمكى أحبِّ آل برمك إليه. ومن الصورة التى تم بها القتل ندرك فداحة النكبة وعمق الفاجعة، وحيرة الفهم ومشقة التفسير.

يذكر المؤرخون أن الرشيد حج سنة ١٨٦ هـ وانصرف عن مكة فدخل الحيرة فى المحرم من سنة ١٨٧ هـ، ثم ذهب إلى الأنبار «فلما كان اليوم الذى عزم على قتْل جعفر دعا بالسندى بن شاهك، فأمره بالمضى إلى مدينة السلام والتوكل بدور البرامكة، ودور كتّابهم، وأبنائهم، وأقربائهم، وأن يجعل ذلك

(١) مروج الذهب ٣/٣٨٩.

سرًا من حيث لا يكلِّم به أحدًا حتى يصل إلى بغداد... فامتثل السندى ذلك. وقعد الرشيد وجعفر عنده... فأقاما يومهما بأحسن هيئة وأطيب عيش، فلما انصرف جعفر من عنده خرج الرشيد حتى ركب مشيعًا له، ثم رجع الرشيد فجلس على كرسى وأمر بما كان بين يديه فرُفع، ومضى جعفر إلى منزله وفيه فضلةٌ من الشراب، ودعا بأبى زكّار المغنى الطنبورى، وابن أبى شبيح كاتبه، ومدت ستارة، وجلست جواريه خلفها يضربن ويغنين وأبو زكار يغنيه:

مايريدُ الناس منّا ما ينامُ الناس عنّا
إنما همُّتهم أنْ يُظهروا ما قد دفنّا»[1]

هذا هو المشهد الأخير فى علاقة الرشيد بجعفر البرمكى فى قصة صداقتهما وحبهما الأخوى الذائع الصيت.

ولكن الرشيد تركناه يجلس على كرسيه بعد خروج جعفر من عنده وفى هذه الجلسة أمر «برفع ما كان بين يديه من أدوات الطرب والأنس ثم أمر الرشيد من ساعته ياسرا خادمه[2]... فقال له: إنى أندبك لأمر ما أرى محمدًا ولا القاسم له أهلا ولا موضعا، ورأيتك به مستقلًا ناهضًا، فحقق ظنى واحذر أن تخالف أمرى... فقال يا أمير المؤمنين: لو أمرتنى: أن أدخلَ السيف فى بطنى وأخرجه من ظهرى بين يديك لفعلت، فمرنى بأمرك فإنى والله مسرع. فقال: ألست تعرف جعفر بن يحيى البرمكى. ألم ترى تشييعى إياه عند خروجه؟ قال: بلى، قال فامض الساعة إليه فأتنى برأسه على أى حالة تجده عليها. فارتج على ياسر الكلام وأخذته رعدة ووقف لا يحير جوابًا. فقال يا ياسر ألم أتقدم إليك بترك الخلاف علىّ. قال بلى يا أمير المؤمنين، ولكن الخطب أجل من ذلك... قال: دع عنك هذا وامض لما قد أمرتك فمضى ياسر حتى دخل على جعفر وهو على حال لهوه، فقال له: إن أمير المؤمنين قد أمرنى فيك بكيت وكيت، فقال جعفر: إن أمير المؤمنين يمازحنى بأصناف من

(١) مروج الذهب للمسعودى ٣/٣٨٧.

(٢) فى رواية الطبرى اسمه «مسرور» ١٠/٨٤، واسمه هكذا شاع فى الحكايات الشعبية.

المزاح... فقال والله ما رأيته إلا جادًا. قال فإن يكن الأمر كما قلت فهو إذن سكران. قال: لا والله... قال: فإن لى عليك حقوقًا لم تجد لها مكافأة فى وقت من الأوقات إلا هذا الوقت. قال تجدنى إلى ذلك سريعًا إلا فيما خالف أمير المؤمنين. قال: فارجع إليه فأعلمه أنك قد نفذت ما أمرك به فإن أصبح نادمًا كانت حياتى على يديك جارية، وكانت لك عندى نعمة مجددة، وإن أصبح على مثل هذا الرأى نفَّذت ما أُمرت به فى غد. قال: ليس لى إلى ذلك سبيل... قال: فأصبر معك إلى مضرب أمير المؤمنين حتى أقف بحيث أسمع كلامه ومراجعته إياك، فإذا أبديت عذرًا ولم يقنع إلا بمصيرك إليه برأسى خرجتَ فأخذتَ رأسى من قرب. قال له: أما هذا فنعم، فمضيا جميعًا إلى مضرب الرشيد فدخل إليه ياسر فقال: ائتنى به وإلا قتلتك قبله. فخرج إليه فقال له: أسمعت الكلام؟ قال فشأنك وما أُمرت به. فأخرج جعفر من كمه منديلًا صغيرًا فعصب به عينيه ومد رقبته فضربها ياسر، وأدخل رأسه إلى الرشيد، فلما رأى الرأس بين يديه أقبل عليه، وجعل يذكره بذنوبه. ثم قال يا ياسر ائتنى بفلان وبفلان، فلما أتى بهم قال لهم: اضربوا عنق ياسر فإنى لا أقدر أن أنظر إلى قاتل جعفر»[1].

إن الفاجعة كما وضحناها - فى نقل جملة طويلة من نصوص رواتها ومؤرخيها - تجعلنا أمام مشهد درامى تسيطر عليه المفاجآت التى لا تحمل حيثياتها وكأنها عمل درامى من المآسى التاريخية السابحة فى بحار الخيلات الجامحة لعدم منطقية الأحداث بفقدان التداعى بين الأسباب والنتائج، إنما المشهد كله مزاج أمير انقلب إلى النقيض فى لحظة، وهذا الانقلاب المفاجئ عصف بعلاقات وثيقة ودودة تمتد طولا وعمقًا بطول سبعة عشر عامًا حافلة فى بلاط مُلْك مقتدر زاخر بالحوادث والحياة معًا.

لكل هذا يصبح البحث عن الأسباب وقبولها أمرًا فى غاية الصعوبة، ومع

---

(١) راجع فى النصوص المنقولة: مروج الذهب للمسعودى ٣/٣٨٧ - ٣٧٩. وراجع الطبرى، وهو أقل تفصيلا فى ذكر الخبر ١٠/٨٤ - ٨٥.

ذلك سنحاول عرضها والتعليق عليها ويبقى فى نفس الدارس شىء من قبولها ما دام يثق فى عقلية الرشيد وتاريخه، اللهم إلا أن يكون هناك ما أهمله التاريخ، لأن ما روى وسجل لم يكن مباحًا فى ظل الدولة الحاكمة والحدث المروِّع، ومثل ذلك قمين بأن يحجر على التاريخ، ويطمس كثيرًا أو قليلاً من حقائقه المتصلة بالأسباب الشخصية أو السياسية، ومع ذلك كله فإننا نمضى إلى عرض ومناقشة ما وصل إلينا من أسباب :

أولا : زواج جعفر من العباسة[1] :

يحكى المؤرخون حكاية عن زواج جعفر البرمكى بالعباسة أخت الرشيد ملخصها :

أن الرشيد قال لجعفر يومًا : ويحك يا جعفر إنه ليس فى الأرض طلعة آنس بها، أو أميل إليها وأنا بها أشد ما أكون استمتاعًا وأُنسًا منك. وإن للعباسة أختى منى موقعًا ليس دون ذلك، وقد نظرت فى أمركما معا فوجدتنى لا أصبر عنك ولا عنها، ورأيتنى ناقص الحظ والسرور منك يوم أكون معها وكذلك حكمى منها يوم أكون معك. وقد رأيت مخرجًا لذلك وهو أن أزوجها لك تزويجًا تملك به مجالستها والنظر إليها ولا تحدث بينكما خلوة البتة. وإنما حضور كما فقط فى مجلسى، وأخذ على جعفر المواثيق والأيمان، وكان جعفر يحضر مجلس الرشيد بحضور العباسة وهو صارف بصره عنها، مزورٌ بوجهه هيبة لأمير المؤمنين، ووفاءً بعهده وأيمانه ومواثيقه.

ثم تقول الروايات بأن العباسة احتالت عن طريق أم جعفر وجعلته يدخل بها، ويقال إنها حملت منه وأنجبت ووجهت ولدها مع خادم وحاضنته إلى مكة.

ويقال إن زبيدة زوجة الرشيد اختلفت مع يحيى البرمكى والد خالد فأذاعت سر العباسة لتنتقم من والد جعفر. وبذلك أمر الرشيد بقتل جعفر فجأة. على النحو الذى سبق عرضه وتوضيحه.

---

(١) راجع فى تفاصيلها : مروج الذهب للمسعودى ٣/٣٨٤ - ٣٨٦ والطبرى ١٠/٨٥ - ٨٦.

ولكن قصة العباسة تبدو لى وعليها اعتراضات كثيرة، وابن خلدون نفسه أسقطها من حسابه. أما الاعتراضات التى أراها فهذا موجزها:

* إن الرجال الكبار لا سيما الخلفاء ومن فى مستواهم من أهل الجلد والحزم لا يتعلقون بالنساء الأخوات بل الأمهات كهذا الذى ذكرته لنا الروايات من تعلق الرشيد بأخته العباسة، وليس ذلك متوارثًا فى التربية العربية، ولا هو من سماتها النفسية، بل لعله يعارض مقاييسها الأخلاقية فى سيطرة الرجولة وغلبتها، وإنما الشائع المقرر فى كرامة الرجال الإعزاز والرعاية والحماية للأخوات ومن فى منزلتهن. أما أن تتطور المسألة إلى أن الرشيد لا يصبر على فراق أخته، وكذلك لا يصبر على فراق مؤانسه جعفر؛ فيجمع بينهما على النحو الذى سبقت روايته فبعيد القبول، وهو من نسج الحكايات والإشاعات التى تلابس الأحداث الكبيرة فى مجتمع لا تُعرف فيه الحقيقة الكاملة

* ثم كيف حملت العباسة من زوجها جعفر فى الخفاء لدرجة أنها نجبت مولودها ثم أخفته مع حاضنة وخادم فى مكة؟! ألم تقل الرواية نفسها إن الرشيد لم يكن يطيق البعد عن مجلسها فكيف غابت عنه فى أشهر الحمل الأخيرة، بل الأولى، وأيام وضع المولود؟ إن هذه أمورًا ليس من السهل قبولها فى ظل العلاقة التى صورتها القصة، اللهم إلا أن نكون ألفينا عقولنا على نحو ساذج، ولو أن القصة وقفت عند القول بأنه علم أن جعفرًا قد دخل بها لكان فيها ملابسة ما للتصديق، ومع ذلك يبقى أمامها اعتراض ضخم، وهو قبول فكرة أن الرشيد عقد بينهما زواجًا على ذلك النحو الساذج. لتلك الأسباب غير المنطقية كما ورد فى القصة. ويبقى فرض أخير وهو أن يكون جعفر قد تزوجها دون علم الرشيد وهو أمر بعيد القبول إلى حد الاستحالة، فهيبة الرشيد وعمق العلاقة بينه وبين جعفر وآل برمك وشدة إخلاص هذه الأسرة وتفانيها فى خدمة ملكه، وشخصية العباسة المعتزة الشامخة فى بيت الخلافة سليل بيت هاشم النبوى كلها تجعل هذا الفرض غير صالح للعرض.

ثانيا : عطف البرامكة على العلويين :

مما سبق درسه فى التطور التاريخى ندرك تمامًا أنه لا بد للعباسيين من محاذرة العلويين، بل القضاء على كل ريبة تبدو منهم، فلما الظن وقد ظهر فى الميدان السياسى حزب علوى يعتمد على السيف فى استرداد حقه فى الخلافة. وهذه قصة ليس مجالها كتب الدراسات الأدبية[1].

أما الموقف المحدد بالنسبة لجعفر فهو خاص بإطلاقه - يحيى بن عبد الله بن حسن ابن حسن بن على بن أبى طالب من محبه وهو علوى طالب للخلافة من آل العباس.

يحدثنا الطبرى فيقول : «ذكر أبو محمد اليزيدى وكان فيما قبل من أعلم الناس بأخبار القوم قال : من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدقه، وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ثم دعا به[2]، فسأله عن شىء من أمره فأجابه إلى أن قال (يحيى لجعفر) اتق الله فى أمرى ولا تتعرض أن يكون خصمك غدًا محمد صلى الله عليه وسلم.. فرد عليه (جعفر) وقال : اذهب حيث شئت من بلاد الله، قال وكيف أذهب ولاآمن أن أؤخذ بعد قليل... فوجه (جعفر) معه من أتاه إلى مأمنه، وبلغ الخبر الفضل بن ربيع... فدخل على الرشيد فأخبره. فأراه (الرشيد) أنه لا يعبأ بخبره، وقال : وما أنت وهذا لا أم لك. فلعل ذلك عن أمرى، فانكب الفضل، وجاء جعفر فدعا (الرشيد) بالغداء فأكلا وجعل (الرشيد) يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال (الرشيد) : ما فعل يحيى بن عبد الله. قال (جعفر) بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس والضيق والأكبال، قال (الرشيد) : بحياتى. فاحجم جعفر وكان من أدق خلق

---

(١) انظر الباب الثانى من كتاب تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم وعلى الأخص ٤/١٠٧ - ١٧٠.

(٢) المعنى فى السياق أن جعفر البرمكى دعا يحيى بن حسن العلوى وسأله.

الله ذهنًا وأصحهم فكرًا، فهجس فى نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدى ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به، ولا مكروه عنده. قال (الرشيد): نعم ما فعلت، ما عدوتَ ما كان فى نفسى. فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه ثم قال: قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان»[1].

واضح إذن من رواية الطبرى أن الرشيد شك فى إخلاص البرامكة فى الحفاظ على عرش الخلافة للعباسيين؛ ذلك أن هوة الخلاف بين العلويين والعباسيين محورها أخذ الخلافة وانتزاعها من العباسيين، وحوادث العلويين ومحاولاتهم فى ذلك كثيرة متنوعة، وحسم العباسيين أمامها حسم لا هوادة فيه، وذلك صراع الملك فى كل زمان ومكان لا غفلة فيه أو مهادنة لمتمكن قادر.

وهذا الشك من الرشيد شك يمكن قبوله، وتخوف يعذر فيه، ولكن جعفرًا حينما تصرف وأطلق سراح يحيى كانت له وجهة نظر محورها أن يحيى العلوى لا خشية منه على الدولة وهى فى قمة قوتها وتمكنها، والحب والثقة التى تمتع بها عند الرشيد تجعله فى حل من التصرف فى سياسة الدولة ما دام التصرف داخل الإطار المحدد الذى رسمه الرشيد للسياسة العامة والخاصة، ولكن الرشيد عندما يأمر بحبس خصم سياسى ينازعه الخلافة ولا شيء غيرها ثم يُفْرج عنه دون علمه، بل إن الرشيد عندما سأل جعفرًا أجابه بأنه فى محبسه وكان قد أطلقه، فهذا يعنى أن جعفرًا يدرك أن الرشيد يغضبه ويؤلمه أن يكون قد أفرج عنه، لا سيما وأنه إفراج بغير علمه ومخالف لسابق أمره، ولما استحلف الرشيد بحياته جعفرًا، أدرك جعفر خطورة الموقف فأخبره بالحقيقة كاملة وهى أنه أطلقه لأنه لا خطر منه، فاتخذ الرشيد قراره فى نفسه كرجل دولة يدفع عن نفسه وعن ملكه بقتل جعفر بأسلوب الفُجاءة والمباغتة.

* إلى هنا يمكن قبول تفسير الحوادث التى أدت إلى مقتل جعفر، ولكن الأمر الذى يصعب قبوله هو شك الرشيد فى إخلاص جعفر وآل برمك، لأن

(١) الطبرى ١٠/٨٠ - ٨١.

البرامكة كانوا سدنة الملك وحماته ووزراءه، وقواده. وتصرفاتهم لا بد أن تكون حماية هذا البيت بمقدار حمايتهم لأنفسهم ودفاعهم عن منزلتهم، أما أن يفسر الموقف على أنه خيانة، أو شروع فيها، أو حدْس بها، فذلك كله غير مقبول، لأن جميع الظروف التي تربط آل برمك بالخلافة العباسية ولا سيما الرشيد ترفض ذلك بشدة.

* والأمر الذي يصعب قبوله أيضًا هو قدرة الرشيد فجأة على قتل هذا الحب الكبير وتلك الصداقة العميقة التي تتمثل في علاقته بجعفر وهي إن صَحّت توضح بعدًا نفسيًا وعقليًا وشعوريًا في شخصية الرشيد ليس من السهل قبوله، خاصة وأنه سجن وصادر آل برمك في أنحاء ملكه عدا نفر محدود، منهم أبناء محمد بن يحيى البرمكي، وقد سجن أباهم يحيى بن خالد إلى أن مات في سجنه وضرب بالسياط وهو الذي كان يناديه الرشيد بقوله: يا أبت[1]..

* إن قبول ضخامة النكبة يدل بغير شك على ضخامة السبب، لأن آلام الرشيد العظيمة هي التي تقاوم حبه الكبير. وهذا السبب الذي معنا هنا يحتاج إلى جملة أسباب أخرى تسانده حتى نقبل ضخامة النكبة في آل برمك، وفي حب الرشيد لهم وثقته بهم، خاصة وأننا عندما نقرأ تاريخهم لا نملك غير التصديق المطلق في تفانيهم في حب الرشيد والقيام على شئون ملكه بإخلاص وإيمان ولكن يبقى بعد ذلك لسياسة الأعيب وأفانين تغيب عن تحليل المنطق ورصد التطور الدقيق لضياع ومسح الأسباب الحقيقية في كثير من حوادث التاريخ.

ثالثًا: اتساع سلطان البرامكة في الدولة:

إن كتب التاريخ لا سيما الطبري والمسعودي تفيض بأخبار البرامكة في تسيير

---

(١) راجع الطبري ٨١/١٠ - ٨٢، ومروج الذهب ٣٩٣/٣ - ٣٩٤.

أمور الدولة، وفى الثراء الذى لحقهم وفى سعة كرمهم وشدة عطائهم وفى قصد الناس أبوابهم ومدح الشعراء لهم.

فعلوّ المكانة وعظم الجاه وسعة الثراء، واتجاه الناس بالحاجة إليهم من شأنه أن يثير عليهم ألوانًا من الحقد، ويشيع حولهم الأقاويل، ولا شك أن لهم فى بلاط الرشيد ورعيته من ينفس عليهم، وإذا كان الرشيد يرفض ويدفع الأقاويل نتيجة حبه لهم وثقته فيهم واعتماده عليهم، فإن الأسباب المباشرة التى أثارته عليهم لا بد أنه قد أضيف إليها رصيد قديم من الوشايات والأحقاد ضدهم، فاجتمع إلى السبب المثير أسباب كامنة أخرى وجدت فرصتها للخروج وإشعال النيران ضدهم فى نفس الرشيد.

وهذا العلامة ابن خلدون يقول فى أسباب نكبة البرامكة: «وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجانهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه[1] فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عن سواهم: من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم. وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وقصرت عليهم الآمال، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وتسربت إلى خزائنهم فى سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية، وأفاضوا فى رجال لشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن، وكسّبوا من بيوتات الأشراف المدوم وفكوا العانى، ومُدِحوا بما لم يمدح به خليفتهم، واستولوا على القرى والضياع من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغضبوا أهل الولاية، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم

(١) هذه المقولة ليس من السهل قبولها أو تصديقها لأن ذكاء البرامكة وحرصهم على تعميق علاقتهم بالرشيد وحرصهم على استبقاء مكانتهم فى ملكه، ما كانت تسمح لهم بمثل هذه الغلطة الساذجة فى علاقتهم بالرشيد.

الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبه أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم»[1].

* إن هذه الأسباب من الممكن تصور أنها الخلفية التى ضمها الرشيد إلى السبب المثير الذى هاجه ضدهم.

* ولكننا إذا وقفنا أمام هذا الحشد الكبير من الأسباب فإن إخلاص آل برمك وتفانيهم فى خدمة الرشيد، وسيادة الدولة فى الداخل والخارج فى عهده كانت شفيعًا وسببًا كافيًا لإطلاق أيديهم، لأنها مطلقة به ومن أجل أبهة ملكه، وليس من السهل قبول الوشاية فيهم لعظيم إخلاصهم وشدة تفانيهم.

* ومما يدل على نقاء سريرة جعفر البرمكى وآله تجاه الرشيد عدم نهوض جعفر إلى التخلص من سياف الرشيد «مسرور أو ياسر على الخلاف فى اسمه» لأنه لو كان جعفر يدبر أمرًا ضد الخلافة لتحرك على الفور فى مواجهة السياف الذى جاءه فى عقر داره يخبره بأن الرشيد يطلب رأسه فورًا.

* ويبدو لى أنه لو تصرف جعفر وقتل السياف على الفور، ثم أنهى الأمر إلى الخليفة على أن هذا السياف جُنَّ وأراد قتلى باسمك، فقتلتُه لتهوره وجنونه، لتغير الموقف حتى عند الرشيد، لأنه كان يهون عليه قتل مسرور السياف، ولا يهون عليه قتل جعفر بدليل أنه بعد أن دخل عليه مسرور برأس جعفر أرسله هو نفسه فى طلب أفراد آخرين فلما دخلوا عليه أمرهم بقتل مسرور قائلًا: إنه لا يطيق أن يرى قاتل جعفر أمامه. ثم أليس هو الذى رد الفضل بن الربيع ردًا يكسر خاطره ويسفه وشايته عندما جاء إليه بخبر إطلاق جعفر ليحيى العلوى حيث قال له الرشيد كما سبق نقله عن الطبرى: ما أنت وهذا؟! لا أمَّ لك، فلعل ذلك عن أمرى! فانكسر الفضل، لإجابته عليه.

* نقول كان فى إمكان جعفر أن يتصرف أمام الموقف ولكن الروايات تصوره حتى وهو على بعد خطوات من الرشيد ويسمع صوته يستسلم للسياف

(١) المقدمة ص ١٣ ط أولى، وراجع ضحى الإسلام أحمد أمين ٤٤/١ ط أولى.

ويعصب عينيه بمنديل صغير ويمد رقبته لتقطع، هل هذا أسلوب رجل يمكن أن يتهم فى ولائه ويمكن أن يخشى منه على المُلك والخلافة ؟! وهل هذا أسلوب يتفق مع ذكاء جعفر وحنكته ؟!

ومع كل ذلك فالحياة رواية مهما عثرتْ فيها على منطق الأحداث فمن المنطق نفسه تجاوز المنطق معها، وفى ضوء هذه الحقيقة المحيرة فى فهم الحياة يمكن أن نطرح تفسيرًا حول علاقة الرشيد الوثيقة بآل برمك وهى أنها علاقة أملتها ظروف الرشيد عند توليه الخلافة، ذلك أن أخاه الهادى كان يعمل على حرمانه من ولاية العهد بعده على نحو ما بيننا ذلك عند الكلام عن موسى الهادى. وأول رجل وقف يقنع الهادى بالعدول عن ذلك هو يحيى بن خالد البرمكى وحَبَسَه بسبب ذلك موسى الهادى وكاد أن يقتله، وهو نفسه الذى رسم لهارون الرشيد خطة البعد عن أخيه الهادى حتى لا يرغمه عن التنازل عن ولاية الخلافة بعده، فلما مات الهادى كان يحيى البرمكى هو الذى أرسل إلى هارون ليحضر لتولى الخلافة، ولما كان الرشيد واليًا على بلاد المغرب ساعده يحيى على النهوض بأعبائها، فإخلاص يحيى البرمكى لهارون وتحمله العناء والشدة فى سبيله أمر سابق لتولى هارون الرشيد الخلافة، هذا بالإضافة إلى أنه مربيه ومعلمه منذ صغره.

لذلك عندما تولى هارون الرشيد الخلافة قلّد يحيى البرمكى الوزارة وفوّض إليه أمور دولته، واستعان بأولاده الأربعة على النحو الذى سبق بيانه.

ولهذا يمكن القول بأن الرشيد أسند إليهم أمر الدولة بحكم الظروف التى وضعته هذا الموضع منهم، ولم يكن فى موقف يختار فيه وينظم توزيع المسئوليات على جهات متعددة حتى لا يكون فى حكمه ما نسميه اليوم بمراكز القوى. فلما زيّن له حاسدوهم شدة خطرهم فى الدولة وجاءه سبب مثير إلى جانب أسباب أخرى كانت تلعب دورها وتباشر فعلها فى نفسه دبر للانقلاب عليهم.

* وفى هذا السياق نشير بعناية إلى دور الفضل بن الربيع الذى كان دائب السعى فى تشكيك الرشيد فى البرامكة، لا يهدأ ولا يتورع، وموقف

جعفر البرمكى عندما أطلق سراح يحيى بن عبد الله العلوى استغله الفضل بن الربيع ببراعة ضد جعفر وآل برمك، يضاف إلى ذلك ما ترويه الروايات من أن الفضل بن يحيى أثناء حكمه القصير فى خرسان جنّد جيشًا ضخمًا تعداده نصف مليون وسماه «العباسة» ولما عاد إلى بغداد أحضر معه عشرين ألفًا من ذلك الجيش ليقيموا معه فى بغداد[1] ولا شك أن مثل هذه الأمور تُشكِّل فرصة ذهبية لانتشار مكائد خصومهم ضدهم وفى مقدمتهم الفضل بن الربيع.

* وعلى كل حال هو افتراض غير مرفوض فى أسلوب الحكم والسياسة، لا سيما مع وجود قوى أخرى متربصة بالبرامكة، والتاريخ يشير بنقص المادة التى عرضها والأسباب التى وضحها إلى أن فى أعماقه ما هو مجهول فى حقيقة هذه القضية وحوادثها البشعة، ومفارقاتها المذهلة.

وبعد فتلك صورة لطبيعة الحكم فى ظل الخلافة والخلفاء العباسيين ولسنا بعد هذا العرض فى حاجة إلى المزيد من الحديث عن الخلافة والخلفاء فالمأمون وهو أبرز الخلفاء بعد موت أبيه لا يبعد كثيرًا فى مغزاه عن أسلوب أبيه الرشيد. ولدينا الآن كل عوامل القوة وأسباب التقدم والازدهار فى الدولة العباسية من خلال معرفتنا بنظام الخلافة وطبيعة الخلفاء وأسلوب الحكم، ولدينا أيضًا تصور عن أسباب القصور ومصادر القلق التى سوف تلعب دورها فيما بعد فى القضاء على هيبة الخلافة وقصورها.

ولكن الأهم أن لدينا رؤية عن تلك التغيُّرات التى أصابت الحياة الاجتماعية والثقافية من خلال تطور نظام الحكم، ودخول عناصر قوية من الأمم الجديدة التى دخلت الإسلام وأصبحت من سدنة العربية لغة وفنًا، والإسلام عقيدة

---

(١) أسطورة الزهد عند أبى العتاهية، د. محمد عبد العزيز الكفراوى ص ٣٩ ط القاهرة.

وانظر الفرض الذى قدمه د. أحمد فريد الرفاعى فى كتابه عصر المأمون ص ١٥٨ المجلد الأول ط ١٢٧ وهو يدور حول فكرة أن البرامكة كانوا متأثرين فى الناحية السياسية بمذهب المعتزلة، وهو الترويج بين جناحى الخصومة من الحزب الهاشمى، والرشيد لم يرض عن ذلك، وحرصه التعيس والوشاة من الجناح العباسى، وطبعًا فى مقدمتهم الفضل بن الربيع.

وشريعة، وهي في الوقت ذاته تحتفظ لدى كثير من أفرادها بالعديد من العادات والتقاليد والرغبات والنزعات الموروثة، وكان للعدد الهائل من الجواري الفارسيات والروميات دخل كبير في تغيير طبيعة الحياة الاجتماعية داخل البيوت العربية التي حسن لديها اقتناء الكثير من الجواري والغلمان.

وسوف نتبين طبيعة التفصيلات العامة المتصلة بهذا التغيير ونلمس دورها في الحياة الأدبية والفكرية.

ولكن جوهر الموضوع يدور حول أن الدولة الجديدة لها أسلوبها الجديد في الحياة الاجتماعية والفكرية، ولها قبضتها القوية على السياسة والحكم في الداخل والخارج، وإن تصديها لمناوئيها وانتصارها الدائم عليهم هو الذي مكن لكل تطور اجتماعي وفكري، لا سيما وأن الخلفاء دفعوا الحياة الفكرية والثقافية نحو مزيد هائل من العطاء والرعاية.

ولكن الدولة العباسية ظهرت معها عوامل نَمَّت ما كان موجودًا من قبل وطوّرته، وأفسحت له الطريق، وأضافت إليه، ومن أبرز تلك العوامل غلبة النفوذ الفارسي، ونقل العاصمة من الشام إلى العراق، ولكن علينا أن نذكر أن العنصر الفارسي كانت تنمو سلطته ويحتل مكانته بتدرج في أواخر الحكم الأموي، والحركة العلمية أيضًا كانت تسير في خطى تبشر بالنمو والاتساع، ولكن الدولة العباسية أفسحت الطريق، ودفعت الناس إلى التطور بسبب اتساع الأسباب في تغير الحياة الاجتماعية والثقافية[1].

---

(١) ضحى الإسلام ١/١ - ٤ ط ١.

المبحث الرابع
التجديد والتطور فى العصر العباسى

١ - التحول الاجتماعى :

من المؤكد فى دراسة أنواع التطور الاجتماعى والفكرى أن التدرج القائم على أسبابه الطبيعية هو السنة الفعالة فى ذلك، وليس سقوط دولة فى يوم وقيام غيرها مكانها يعنى وجود حدّ فاصل مميز بين عهدين فى التطور، ومن هذا المنطلق فإن قيام الدولة العباسية لا يعنى أن عوامل التطور والتغير قد ظهرت فجأة معها أو أنها كانت منعدمة قبلها، فالدولة الأموية نفسها تطورت وأصبحت صورتها فى آخر أيامها تخالف صورتها فى بداية أمرها، وكما يقول الأستاذ أحمد أمين : « إن الدولة الأموية لو قدر لها أن تستمر فى الحكم الزمنَ الذى حكمته الدولة العباسية لظهر على يديها من الحركات العلمية والإصلاحات الاجتماعية قريب مما ظهر على يد العباسيين »[1].

يقول الأستاذ الدكتور يوسف خليف : « لم يكن الإنقلاب العباسى - فى حقيقة أمره - ثورة سياسية فحسب أدالت لبنى العباس من بنى أمية، وإنما كان أيضًا ثورة اجتماعية غيرت من صورة المجتمع العربى التى كان عليها أيام بنى أمية إلى مجتمع إسلامى جديد تعيش فيه أمة إسلامية تضم إلى جانب العنصر العربى عناصر فارسية ارتفعت إلى منزلتها الاجتماعية حتى تفوقت على العرب، واستطاعت أن تفرض نفوذها عليه، وأن يكون لها تأثيرها الفعال فى تطويره والتأثير فيه من شتى جوانبه، وطبعه بطابع فارسى جديد لم يعرفه المجتمع العربى أيام الدولة الأموية العربية، وقد لاحظ الجاحظ هذه الظاهرة فقال عبارته المشهورة التى يصف فيها الدولة الأموية بأنها : عربية أعرابية، والدولة العباسية

---

(١) ضحى الإسلام احمد امين ٢/١ ط ١.

بأنها : فارسية أعجمية»[1].

تغيرت الحياة فى ظل الدولة العباسية تغيرًا واسعًا فقد انتقلت الأمة من بقايا حياة البداوة الى الحضارة ومن خشونة العيش أحيانًا إلى رخاء النعمة، وأصبحت الملابس الموشاة المطرزة الناعمة الرقيقة لباس كثيرين من الطبقة المتوسطة، وشارك الشعراء والأدباء فى الحياة الناعمة مشاركة واسعة.

فلا عجب إذا اختلف الشعراءة فى هذا العصر عما كانوا عليه فى العصور السابقة لأن الشعراء الذين أقاموا فى المدن فى العصور السابقة على هذا العصر كانوا قلة : كعدى بن زيد، وأمية بن أبى الصلت، وحسان بن ثابت، وعمر بن أبى ربيعة. ومعلوم أن الدولة الأموية كانت تعتمد على العنصر العربى وكان الشعراء من أهل البادية يفدون إلى البصرة والكوفة أو الحجاز أو نجد وكثرتهم ليست متحضرة. أما فى العصر العباسى فقد ترك الشعراء البوادى.. واتجهوا إلى المدن وفازت بغداد والبصرة والكوفة بنصيب وافر منهم، وينبغى ألا ننسى فى هذا الدور ظهور طبقة من الشعراء الموالى فهم أساسًا ليسوا من أهل البوادى ولا من عشاق المثل الأعلى فى الحياة الاجتماعية العربية.

ومن يتتبع حياة الترف والبذخ فى ظل الدولة العباسية فإنه يرى شيئًا فوق التخيل والوصف، فالقصور الواسعة المترفة ذات الشرفات المتعددة والحمامات المزودة بالمجارى تحت الأرض والبساتين والنافورات والبرك، والزجاج الملون ومصارع الأبواب المصنوعة من الأخشاب الراقية والمزينة بالنقوش والمبطنة بالأغطية والمرصعة بالفضة والذهب، وكذلك الجدران المزدانة بالرسوم والمعلق عليها الستائر، والسقف المذهبة والبسط الإيرانية الغالية والتحف النادرة والأوانى المرصعة بالجواهر. كل هذا كان فى حياة الخلفاء والوزراء، وشىء قريب منه فى حياة الطبقة المتوسطة من التجار وغيرهم، وكان الشعراء ينعمون بكل هذا، فدور الخلفاء والوزراء وعلية القوم مفتوحة لهم.

---

(١) تاريخ الشعر فى العصر العباسى ص ١٧ دار الثقافة القاهرة ١٩٨١ م.

وكانت موارد الدولة كثيرة، وكانت تمنح الشعراء وغيرهم من العلماء والأطباء والمغنيين أعطيات تكفل لهم حياة الرغد والترف، ونافس الوزراء الخلفاء فى الهبات للشعراء والمغنيين، وأصبح الشعراء والمغنون طبقة مترفة تلبس المقاطع الحريرية وتستكثر من الديباج والخز ومن أنواع العطور والطيب، وبالغ النساء الحرائر والجوارى فى الزينة والأناقة «ويقال إن دنانير جارية البرامكة كانت تتحلى بعقد من الجواهر بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار وكان الرشيد قد أهداه إليها»[1].

وينبغى ألا ننسى فى هذا السياق أن الطبقة المترفة من الأمة لم تكن تمثل الكثرة الغالبة ولذلك فمن الطبيعى أن يعم البؤس والشقاء الجمهور العريض من العرب والموالى على السواء، ومن ثم قام عديد من الفتن والثورات فى العصر العباسى.

لكن الشىء المؤكد أن حياة الترف التى أصابت الشعراء والعلماء كانت تعبيرًا عن حب الدولة لهم وتقديرها لجهودهم، وذلك لأن العصر العباسى لا سيما الفترة الأولى منه تمتاز «بأن من تولى فيها عرش بغداد كان من الخلفاء العلماء فرغبوا فى العلم وإجلال للعلماء والأدباء، وسهلوا نزوحهم إليهم وأجروا الأرزاق عليهم وبالغوا فى إكرامهم، وقربوهم وجالسوهم وآكلوهم وحادثوهم، وعولوا على آرائهم، فلم يبق ذو قريحة أو علم أو أدب إلا يمم دارالسلام ونال جائزة أو هدية أو راتبًا»[2].

وفى المجتمع الجديد ظهرت طبقة الرقيق والجوارى وكثرت مجالس الغناء وتعددت دور المجانة واللهو والشراب وكانت مترعة بالغلمان، وكانت قيمة الجارية ترتفع بقدر ما تجيد من أمارات اللهو والترف والتحضر وفى مقدمتها الغناء والرقص. وازدحمت الدور بالرقيق من الجوارى وكان الرجال بعامة يفضلونهن

---

(١) العصر العباسى الأول، د. شوقى ضيف ص ٥٠ ط ٢ وانظر فى الموضوع جرجى زيدان ٣٢٥/٢ وتاريخ الشعر العربى ص ٧ د. محمد عبد العزيز الكفراوى.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية جرجى زيدان ٢٣٦/٢.

على الحرائر، وصوّر الجاحظ ذلك فقال: «قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من المهيرات[١] أن الرجل قبل أن يملك الأمة يكون قد تأمل كل شيء منها وعرف ما خلا حظوة الخلوة. فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة، والحرة إنما يستشار في جمالها النساء.. والرجال بالنساء أبصر»[٢].

ويلفت النظر إلى حد بعيد سعة حظوة الجواري عند الرجال بحيث كن يزحمن بيوت الخلفاء والولاة وسراة الناس، ومعروف أن ذلك الأمر اتسع كثيرًا في العصر العباسي الأول[٣] وقد رأينا أن أكثر الخلفاء من أمهات أعجميات[٤]، فالمنصور أمه حبشية، والهادي والرشيد أمهما الخيزران رومية، والمأمون أمه فارسية، وكان للرشيد زهاء ألف جارية، وكان للمتوكل أربعة آلاف[٥].

ويبلغ من دلّ الجواري وحريتهنّ أنهن كن يعلّقن الصلبان في مجالس لهوهن وسمرهن في مجلس المأمون[٦]، وكان ذلك يحدث في بيت المهدي من قبل[٧].

وشيءٌ خطير الدلالة في تطور الحياة الاجتماعية بسبب كثرة الجواري وشيوعهن مع إيثارهن هو اتجاه العباسيين إلى التوسع في تعليمهن، وأكثر عنايتهم كانت بتعليمهن الغناء، ذلك أن الغناء كان قد تطور تطورًا كبيرًا في ظل الدولة العباسية، وأن الناس شغلوا به وكانت له مدارس متعددة[٨]، وقد

---

(١) المهيرة: الحرة الغالية المهر.

(٢) رسائل الجاحظ ص ٢٧٤ ط السندوبي.

(٣) راجع ضحى الإسلام ٩/١ ط ١، ثم انظر الفصل الخاص بالرقيق ص ٧٩ وما بعدها.

(٤) يقول المسعودي: «ولم يكن فيمن سلف من الخلفاء إلى وقتنا هذا - وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة - من أبوه وأمه من بني هاشم إلا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والأمين ابن زبيدة ولد الرشيد» ٤٠٤/٣ - ٤٠٥. مروج الذهب ط ٤.

(٥) ضحى الإسلام ٩/١.

(٦) السابق ص ٨٧.

(٧) السابق ص ٨٨.

(٨) راجع في تاريخ الغناء والموسيقى ما ذكره بروكلمان عند كلامه عن تاريخ الحضارة والثقافة ٦٣/٣ تاريخ الأدب العربي ط ٤ المعارف.

سعد الغناء وأهله فى عصر المهدى إذ كان يكيل لهم المال كيلًا، واقتدى به الهادى فى ذلك ثم خلفهما الرشيد فجعل المغنين مراتب ودرجات، ومن أشهرهم حينذاك إبراهيم الموصلى ويقال إنه ترك تسعمائة صوت صنعها ابتداء، وبلغ من رقى هذا الفن أن أقبل أبناءُ الخلفا على تعلّمه وقد أرّخ لهم صاحب الأغانى. وكان الغناء يرفع ثمن الجارية أضعافًا مضاعفة إذ يقال: إن صالح ابن على عم المنصور اشترى سعدة بتسعين ألف درهم، وغيرها بلغ ثمنها مائة ألف وعن طريق الغناء والطرب والرقص شاعت فى المجتمع أفانين الرقة والتظرف، وصاحب ذلك تطور فى الأزياء وفى العطور وفى آداب الطعام والسمر.

ولكن الأمر تطور إلى ما هو أشد خطرًا إذ عم المجون كثيرًا من طبقات المجتمع وفى مقدمتهم الشعراء، وذلك أن الفرس أشاعوا بين الناس عوائدهم فى ذلك وأصبحت الخمر والغزل بالمذكر ومنادمة الجوارى مسائل قد عم بها البلاء، وأصبحت الحانات أماكن لهو لا حدود لما يُرتكب فيها من آثام.

وكل هذا يلفت نظرنا إلى أن العصر كان عصر حرية اجتماعية نتج عنها هذا التطور الهائل فى العادات والأخلاق والقيم عند الطبقة المترفة ومن ولاها. والمسئول عن ذلك هو البيئة المدنية الجديدة. ولكن ذلك لم يكن يعم جميع الناس بل كان هناك من يرفضون كل هذا المنكر ويزدرونه ويحاربونه أو ينعزلون عنه وينفرون منه، وهذا الصراع الاجتماعى بين المجانة وإنكارها، وبين التديّن والهروب منه صوّره الشعر تصويرًا واضحًا وبعض نماذجه ما ظهر عند بشار وأبى نواس من جهة وأبى العتاهية من جهة أخرى فى مرحلة نُسكه.

وينبغى أن نشير بعناية هنا إلى أن الحرية لم تكن فى الجانب الاجتماعى فحسب، بل كانت طابعًا يميز الحياة الدينية والفكرية، فقد كانت الحرية بصفة عامة من سمات هذا العصر إلا ما يمس الدولة أو الخلافة، ولذلك تعددت البدع الدينية فى أيامهم من المجوس وغيرهم، هذا إلى جانب تعدد الفرق والنحل والمذاهب والأهواء «فكانت الأفكار من حيث الدين مطلقة الحرية فى

ذلك العصر لا يُكْره الرجل على معتقده أو مذهبه»[١].

وفى هذا الجو تميزت اتجاهات كان لها تأثيرها فى الحياة الأدبية والفكرية والسياسية أيضًا وهى: الشعوبية والزندقة والزهد وسوف نعرض لها بالقدر المناسب فى دراستنا للشعر والشعراء.

٢ - التطور الثقافى والنهضة العلمية:

يقول العلامة نيكلسون: «كان لانبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها، أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل. حتى لقد بدا أن الناس جميعًا من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنًا غدو فجأة طلابًا للعلم، أو على الأقل أنصارًا للأدب، وفى عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيًا إلى موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين، ثم يصنّفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنّفات التى هى أشبه شيء بدوائر للمعارف، والتى كان لها أكبر الفضل فى إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل»[٢].

نعم كان الأمر كذلك فقد كانت الدولة العباسية تضم بلادًا واسعة الأطراف متعددة الأجناس واللغات فهى تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا، وتمتد من المحيط الهندى والسودان جنوبًا إلى بلاد الترك والروم والصقالبة شمالاً وهى «بذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر وإيران العراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب»[٣] وهذه الأقطار بشعوبها ولغاتها وأخلاقها وعاداتها وعلومها ومعارفها ونزعاتها ونزغاتها لم تكد تدخل فى نطاق الحكم العربى حتى أخذت عناصرها

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جرجى زيدان ٢/٢٣٧.

(٢) انظر: Literary History of the Arabs. Nicholson, p: 281, London 1907.

(٣) العصر العباسى الأول، د. شوقى ضيف، ص ٨٩، وانظر ضحى الإسلام ١/٥.

تختلط ثم تمتزج بالعنصر العربى واللغة العربية، وهكذا جرت الحوادث والأسباب بما أدى إلى انصهار هذه الشعوب وتلك الأمم فى بوتقة الأمة العربية والحضارة الإسلامية حتى غدت هذه الأجناس كأنها جنس واحد.

والاختلاط والامتزاج لم يتوقفا عند حدود التجاور أو تبادل مصالح الغالب والمغلوب لدى كل منهما عند الآخر، بل إن الاختلاط أصبح امتزاجًا بالدم عن طريق المصاهرة والتسرّى وكثر أولاد العرب من الأجنبيات وكثرت علاقات الولاء الذى كأن يأخذ شكل رابطة القرابة والدم، فالشخص يكون فارسيًّا أو هنديًّا أو غير ذلك ويكون ولاؤه فى قبيلة عربية ينتسب إليها وتقوم هى بحماية حقوقه والذود عنه.

واستطاع الإسلام بتعاليمه السمحة الكريمة أن يسوى بين كل المسلمين وأن يقرر الحقوق الأساسية لغير المسلمين بحيث تحفظ حقهم وكرامتهم، ويعجب المؤرخون من أن الإسلام بعد أن بسط نفوذه بحوالى قرن على هذه البقاع فإذا بالعربية «قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم... وأصبحت شعوبها... عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب... وقد اختلف إسراعها إلى هذا التعرّب (أو التعريب) باختلاف مواقعها من الجزيرة العربية فكان أسرعها تعربًا العراق والجزيرة والشام، وكان تعربها جميعًا قد بدأ فى الجاهلية، وأتمته الفتوح العربية سريعًا... ثم تعربت مصر وبلاد المغرب تدريجيًّا»[1].

أما الفرس فقد أقبلوا على العربية بل على التعرب إقبالاً منقطع النظير وقد تعلموا اللغة وأتقنوها وأجادوها، ونعجب كل العجب إذ نرى هذه اللغة وقد سيطرت على وجدناهم ومشاعرهم وأحاسيسهم، إلى الحد الذى نرى فيه الكثرة الكاثرة من الشعراء العباقرة الذين يحتلون مكانة كبرى فى تاريخنا الأدبى من الموالى الفرس، الذين امتزجوا بالعنصر العربى واللسان العربى وأصبحوا جزءًا عزيزًا من تراث العربية، وهذا يدل أبلغ دلالة على أن هذه الشعوب ذات الحضارة والتاريخ قد وجدت شيئًا قويًّا سيطر عليها وأصبح يشكل وجودها

(١) العصر العباسى الأول «شوقى ضيف، ص ٩١، وانظر ضحى الإسلام ص ١/٥ - ٨ ط.

الحق، وهذا الشيء لم يخرج عن أمرين اللغة العربية والدين الإسلامى، ولا عجب بعد ذلك أن نرى بينهم عمالقة العلماء وكبار العلماء فى شتى فروع المعرفة عربية وإسلامية فأبو حنيفة النعمان وكثرة من تلاميذه من الفرس وشيخ العربية وعميد النحو العربى سيبويه ونابغة الكتاب والمترجمين بعد بعد الحميد الكاتب وهو ابن المقفع وغير هؤلاء ممن لا يدخلون تحت حصر، فما الظن إذا كان الحديث عن الإمام البخارى وأمثاله.

وينبغى أن نتذكر جيدًا أن الذين دخلوا فى الدين الجديد وأشربوا تعاليمه وأتقنوا اللغة الجديدة لم يهجروا لغتهم تمامًا، فقد ظلت لكثرة منهم لغاتها الأصلية وكان لذلك دوره فى تسرب بعض الألفاظ إلى العربية لا سيما من الفارسية، وأخذ اللحن يفشو، ولكن علماء اللغة كانوا لكل لحن بالمرصاد وكانوا حماة التراث الأدبى من اللحن والخلط والخطأ وسوف نعرف بعد قليل دورهم على نحو محدد.

ويجب أن يكون واضحًا لدينا أن الأمم التى قهرها العرب المسلمون كانت تزخر بكثير من العلوم والمعارف. وقد كشف الإنسان العربى بمجرد لتسائه بالعلوم والمعارف والثقافات فى الأمم التى اتصل بها عن رغبته الوثيقة فى المعرفة وحرصه عليها، ويكفى أن نشير فى هذا السياق إلى اهتمام الخلفاء بنقل العلوم والمعارف إلى العربية وأيضًا حرصهم على التفوق فى كثير من العلوم والمعارف السائدة فى عصرهم بعد هذا الامتزاج وذلك الاختلاط وبعد انتشار الترجمة وتوفر النشاط فيها، ومن المعروف أن المأمون كان عالمًا بالعربية متعمقًا فى العلوم الدينية والفلسفية مشتغلاً بمسائل علم الكلام، وكان يقيم الندوات والمناظرات فى قصره ويشارك فيها مشاركة واسعة، يقول يحيى بن أكثم[1]: «أمرنى المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم»[2].

---

(١) انظر عنه عصر المأمون، فريد رفاعى، المجلد الأول ص ٣٠٨ ط ١٩٢٧ دار الكتب

(٢) العصر العباسى الأول «شوقى ضيف» ص ١٠٥

ويمضى يحيى بن أكثم فيقول إنه لما انتهى ذلك المجلس طلب إليه المأمون أن ينوع المجالس ويجعلها مجالس متخصصة تجمع من أهل كل فن أعلمهم وأحذقهم وينص المسعودى صاحب مروج الذهب فيقول

« قرَّب المأمون إليه كثيرًا من الجدليّين والنظارين كأبى هذيل العلاف، وأبى اسحق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما (يريد المعتزلة وغيرهم) ولزم مجالسة الفقهاء، وأهل المعرفة من الأدباء، وأقدَمَهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل »[1].

ويصور لنا المسعودى مجلسًا من مجالس العلم فى بلاط المأمون فيقول[2] : « كان المأمون يجلس للمناظرة فى الفقه يوم الثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء ومَنْ يناظره من سائر أهل المقالات أُدخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم : إنزعوا أخفافكم، ثم أُحضرت الموائد، وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب وجدِّدوا الوضوء، ومن خُفُّه ضيق فلينزعه، ومن ثقلت عليه قلنسوة فليضعها، فإذا فرغوا أُتوا بالمجامر فبخروا وطُيِّبوا، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه، ويناظرهم أحسن مناظرة، وأنصفَها وأبعدها من مناظرة المتجبرين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ثم تُنصبُ الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون ».

ويقول الجاحظ : « قال سهل بن هارون يومًا وهو عند المأمون من أصناف العلم ما لا ينبغى للمسلمين أن يرغبوا فيه، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال. قال المأمون قد يسمى بعض الناس الشيء علمًا وليس بعلم. فإن كنت أردت هذا فوجهه الذى ذكرنا، ولو قلت إن العلم لا يدرك غوره، ولا يسبر قعره، ولا تبلغ غايته، ولا يستقصى أصنافه ولا

---

(١) نقلا عن العصر العباسى الأول، د. شوقى ضيف ١٠٥-١٠٦، وقد راجعت المسعودى عند الكلام عن المأمون فلم أجد النص ولعله جاء فى سياق آخر.

(٢) مروج الذهب ١٩/٤ ط ٤ تحقيق محمد محيى الدين، وراجع عصر المأمون د. فريد رفاعى فى ثلاثة مجلدات ط دار الكتب سنة ١٩٢٧.

يضبط آخره فالأمر على ما قلت، فإذا كان الأمر كذلك فابدءُوا بالأهم فالأهم وابدءُوا بالفرض قبل النفل، فإذا فعلتم ذلك كان عدلاً»[1].

ولم تكن مجالس الخلفاء وحدها بل كانت مجالسهم هذه علامة واضحة على سريان هذه الروح فى الأمة كلها، فكانت دور العلماء والخاصة وغيرها من الأماكن العامة والخاصة منتدى فكريًا وثقافيًا، وكانت الحرية الفكرية تكفل للناس أن يفكروا وأن يقولوا.

على أنه ينبغى أن يكون واضحًا لنا أن التعليم كان ميسرًا لعامة الناس وكأنما المعرفة كانت مطروحة بالطرقات، فالمساجد مفتوحة عامرة بحلقات الدرس والجدل والمناظرة، ودكاكين الوراقين كانت أشبه بدور الكتب حاليًا فالناس لا يقصدونها للشراء فحسب بل للقراءة أيضًا نظير أجر زهيد.

ونظرا لتيسير العلم والمعرفة فإننا نجد أبناءَ العامة قد نبغ منهم خلق كثير فبشار أبوه كان طيانًا يضرب طوب اللبن، وأبو نواس كانت أمه فيما يقال تغزل الصوف أو تبيع شيئًا من عطارة النساء، وأبو العتاهية كان يحمل الجرار على ظهره يبعها فى شوارع الكوفة، وأبو مسلم بن الوليد كان حائكًا. وأبو تمام كان أبوه عطارًا أو خمارًا واشتغل فى صغره بحياكة الملابس، وهكذا وجد أبناء العامة سبيل العلم ميسرة سهلة، فالعلم منتشر فى كل البقاع لا يرد قاصدًا إليه، وبذلك أصبح الطريق لنبوغ أولاد العامة من الناس مفتوحًا إلى منتهاه.

لا عجب مع هذا أن تشيع العربية وأن ينتشر التعليم والتثقيف بها وأن تصبح لغة الفكر والاحساس، لا سيما وأن همة الخلفاء ومن والاهم، وكذلك تحمس العلماء المسلمين فى طلب المعرفة والتوسع فى نشرها كان متوفرًا كل هذا دفع الأمة دفعًا إلى نقل علوم الأمم الأخرى، والعناية بترجمتها ليعم انتشارها ويسهل الانتفاع بها.

وهنا إشارة تاريخية يحسن أن نتوقف عندها قليلاً وهى أن أمة الفرس

(١) البيان والتبين ١٨٥/٣ ط دار الكتب العلمية بيروت وانظر مناظرة المأمون للمعتزلة الخراسانى ص ١٨٦، وانظر مناظرته لأحمد بن أبى داود ص ١٨٧.

كانت أقوى الأمم علاقة بدولة العباسيين وكانت فى الوقت نفسه قد تجمعت لديها تقريبًا كل علوم الحضارات السابقة والمعاصرة يقول الأستاذ جرجى زيدان: «لما تولى كسرى أنو شروان العادل (٥٣١-٥٧٨ م) فتح للفرس موردًا جديدًا للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد (يوستنيان) قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على أثر إقفاله الهياكل والمدارس الوثنية، وكانت الفلسفة الأفلاطونية الجديدة قد نضجت، ففر بعض أصحابها من وجه الاضطهاد وتفرقوا فى العالم وجاء سبعة منهم إلى أنو شروان فأكرم وفادتهم وأمرهم بتأليف كتب الفلسفة أو نقلها إلى الفارسية، ورغّب الناس فيها، وعقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن، حتى خيل لليونان الذين جالسوا أنو شروان أنه من تلاميذ أفلاطون، ولم يقتصر أنو شروان على نقل علوم اليونان إلى لسانه، ولكنه نقل علوم الهنود أيضًا من السنسكريتيه إلى الفارسية وأنشأ فى جند نيسابور ما رستانا لمعالجة المرضى وتعليم صناعة الطب استقدم إليه الأطباء من الهند وبلاد اليونان، وكانوا يعلّمون فيه الطبين الهندى والأبقراطى»[1].

«وجملة القول أن المسلمين نقلوا إلى لسانهم معظم ما كان معروفًا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدنة فى ذلك العهد، ولم يتركوا لسانا من ألسن الأمم المعروفة إذ ذاك لم ينقلوا منه شيئًا وإن كان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية.. فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها فكان اعتمادهم فى الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان، وفى النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس. وفى الطب (الهندى) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والأقاصيص على الهنود، وفى الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الأنباط والكلدان، وفى الكيمياء والتشريح على المصريين فكأنهم ورثوا أهم علوم الآشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهند واليونان، وقد مزجوا ذلك كله واستخرجوا منه علوم التمدن الإسلامى»[2].

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جرجى زيدان ٢ / ٣٠ - ٣١.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية جرجى زيدان ٢ / ٣٥.

« ويلاحظ أن العرب نقلوا من علوم تلك الأمم فى قرن وبعض القرن ـ لم يستطع الرومان بعضه فى عدة قرون، وذلك شأن المسلمين فى أكثر أسباب تمدنهم العجيب »[1].

وبالضرورة فإنه كان لهذا النقل أثر هائل فى الآداب الاجتماعية وكذلك فى الآراء والأفكار لا سيما مانقل عن الفرس فى أبواب التاريخ والآداب وهذا الأثر شبيه تمامًا بتلك الآثار التى نجمت عن صلاتنا المعاصرة بالآداب والحضارة الأوربية، فإننا تأثرنا فى تفكيرنا وعوائدنا وقيمنا بكل ما تقاطر إلينا من خير أو شر معاً، ومثل ذلك حدث مع العرب على نحو واسع فى العصر العباسى.

والمسلمون الذين أخذوا هذه العلوم بالنقل وعكفوا على دراستها وتأملها استخرجوا منها وأضافوا إليها وألفو تأليف عجيبة تنسب إليهم إلى اليوم، وقد أصبحت الحضارة الفكرية والعلمية التى آلت إليهم ذات طابع عربى إسلامى لأن حب المعرفة كان قائما ومهيمنًا على نفوس جلّة العلماء وهذه الحضارة العربية الإسلامية الجديدة هى التى كان عليها اعتماد الأوربيين فى نهضتهم الأخيرة التى نتج عنها تيار المدنية الحديثة بكل مافيها من تطورات وآفاق. فالحضارة الإسلامية فى جوانبها العلمية هى التى قادت خطى النهضة الأوربية الحديثة، ولولا هذه الحضارة الإسلامية لكان على أوربا أن تبدأ المسيرة الفكرية والعلمية من الصفر، وما كان لها أن تصل إلى ما وصلت إليه اليوم إلا متأخرة حينًا.

إن الذى ينبغى أن نشير إليه كثيرًا هو أن العقل العربى فى العصر العباسى الأول أصبح عقلاً علميًا وفلسفيًا معًا ومن هنا انطلق يضيف علومًا جديدة فى أدق فروع الرياضة وأصعبها وهو علم « الجبر » الذى وضع أصوله الخوارزمى ذلك الرجل الذى ألح عليه الفكر فاصطدم بسارية فى المسجد دقت رأسه لأنه كان مشغولا بوضع جدول حساب بسيط تعرفه الجارية الصغيرة غير المتعلمة وتذهب

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جرجى زيدان ٢ / ٣٦. وانظر أيضًا فى هذا الموضوع ضحى الإسلام، تاريخ الأدب العربى حنا الفاخورى. عصر المأمون فريد رفاعى.

به إلى السوق فلا تخطئ فى حساب يعْرِض لها أو يُعرض عليها، وهذا الرجل نفسه هو صاحب حساب المثلثات، وكما يقول المستشرقون عنه إنه افتتح عصرًا جديدًا فى الرياضيات وكان أيضًا من أكبر علماء الفلك، ونبغ مثل الخوارزمى كثيرون فى شتى فروع العلم التجريبى كالطب والكيمياء إلى آخر ما هو شائع معروف عن العرب فى ذلك، حتى لدى المستشرقين أمثال نالينو. وألدوميلى.

ومن المهم أن نشير بعناية إلى أن هذه العقلية العربية لم تقف عند حدود التقدم العلمى فى العلوم الحديثة أو الدخيلة التى نقلت إليها بل إن العقلية العربية مضت إلى وضع علوم العربية على أسس وقواعد ونظريات وكذلك العلوم الإسلامية. فمدارس البصرة والكوفة فى النحو واللغة. ومدارس الفقه واختراع علم أصول الفقه وهو من أعظم العلوم الذى يشهد بعبقرية العقلية العربية والذى ما يزال يعطى الدليل بدقته وروعته على رقى العقلية العربية الإسلامية فى ميدان مناهج العلوم واستنباط قواعدها وتحديد أصولها على نحو متكامل محكم. والعلوم العربية والإسلامية كثيرة لا تدخل تحت حصر وحسبنا الإحالة هنا على كتاب ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين[1].

---

(١) راجع أيضًا: تاريخ آداب اللغة العربية جرجى زيدان، وعصر المأمون أحمد فريد الرفاعى، والعصر العباسى الأول د. شوقى ضيف، وتاريخ الأدب العربى حنا الفاخورى.

المبحث الخامس
أبرز سمات النهضة الأدبية فى العصر العباسى

لمحة عن الحياة الأدبية قبل قيام الدولة العباسية :

يمكن القول بأن نقطة البدء الحقيقية لانطلاق الشعر والشعراء إلى آفاق الحياة بشعابها المشروعة وغير المشروعة توافق مقتل عثمان بن عفاف رضى الله عنه فقد أدى مقتله إلى انقسام الأمة ووقف معاوية وأتباعه يطالبون بثأر عثمان ووراثته فى الخلافة، ووقف علىّ وأتباعه فى الجبهة الأخرى ضدهم ووقف الشعراء فريق إلى هؤلاء وفريق إلى أولئك وأصبح معاوية يتملق الشعراء لنصرته، وعلىّ يحتملهم ويجاملهم ليقوموا بالدفاع عن مذهبه ووجهة نظره، وفى هذا الجو خفت قبضة الدين وفتر الحماس الشديد للوقوف عند الجزئيات الدقيقة من تعاليمه لدى نفر غير قليل، ونشأ جيل جديد عَلَى غير التشدد فى الدين وهكذا فُتح الباب على سعة للشعر والشعراء.

وما أن انتزع الأمويون الخلافة من علىّ وأتباعه حتى تشددوا فى محاربة العلويين وفى التصدى لكل الخارجين على حكمهم من الزبيريين والخوارج، وكان الأمويون يعتمدون على الشعراء فى الانتصار لأنفسهم والنيل من خصومهم وأجزلوا العطاء للشعراء وأصبحت الوظيفة الأولى للشعر فى تلك الآونة الصراع السياسى والمذهبى وإثارة العصبيات، وتملق الحكام والسدعاية لهم طمعًا فى جوائزهم وصلاتهم، وهكذا ارتفع شعر السياسة والعصبيات والمدح، ثم اتسع إلى جانب ذلك وربما فى مقابله شعر الغزل. ووجد لدينا تياران كبيران منه، هما : الغزل الحسى العابث وزعيمه عمر بن أبى ربيعة، والغزل العذرى ومن زعمائه جميل بثينه وكثير عزة، وقيس بن ذريح، ومجنون ليلى : قيس بن الملوح.

وينبغى أن نشير بعناية هنا إلى الخصومات الأدبية التى يمثلها شعر النقائض

بين جرير والفرزدق فهذا النوع من الشعر كان ملهاة للناس عن شئون السياسة وإن أخذ بأطراف منها وكان ترفًا فاسدا فى الفن الشعرى.

وفى الوقت ذاته كان يلعب شعر النقائض دورًا هامًا فى إثارة العصبيات التى تعمل بدورها على بث الفرقة وانشغال القبائل بحزازاتها القديمة والحديثة، وذلك الدور يخدم الوضع السياسى الذى كانت تحرص عليه حكومة بنى أمية لضرب القبائل بعضها ببعض حتى لا تجتمع كلمتها ضد نظام الحكم ولا تجد وقتا لنقده، أو لمطالبته بتطبيق قواعد الإسلام وخلائقه تأسيًا بأيام الخلفاء الراشدين، فشعر النقائض كان يمثل ملهاة اجتماعية، وفى الوقت ذاته يقوم بدور سياسى فعال فى خدمة نظام الحكم الذى يحارب فى أكثر من جبهة، وأصبح من أسلحته فى الساحة الأسلوب الفطرى المعروف «بفرق تسد».

وسعة هذه الأغراض وتنوعها نهضا بالشعر إلى دور جديد من أدواره بحيث يمكن القول بأن الشعر طرأت عليه أنواع من التأثيرات وظهرت فيه سمات تميزه عن العصر الجاهلى مع التسليم بأن الشاعر الأموى كان مخلصًا لتقاليد الشعر الجاهلى، ولكن ذلك الإخلاص لم يمنعه من تقديم إضافات فنية استجابة لروح العصر والبيئة والإنسان الجديد الذى عاش فى ظل الحكم الأموى والفتوحات الإسلامية، لأن الإنسان كان قد أصاب حظوظًا متفاوتة من الترف والثقافة شكّلا مزاجه وشخصيته على نحو يختلف كثيرًا عن إنسان العصر الجاهلى[1].

حتى إذا كان العصر العباسى واستقرت به الأحوال وتغير فيه وجه الحياة الاجتماعية والثقافية بسعة التطور فيها كان للشعر والشعراء سمات ومميزات وخصائص سوف نتعرف عليها فيما يلى:

لغة الشعر بين التراث والتجديد فى العصر العباسى:

١ - يلفت نظر المؤرخ للأدب هذا الدور الإيجابى الذى قام به علماءُ اللغة فى العصر العباسى حيث حفظوا على اللغة العربيه سلامتها من مداهمة اللحن

(١) انظر التطور والتجديد فى الشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف، وانظر تاريخ الشعر العربى فى صدر الإسلام وبنى أمية جـ١ د. محمد عبد العزيز الكفراوى وانظر له أيضًا الشعر العربى بين الجمود والتطور.

لها وتأثيره فيها وكان لهؤلاء العلماء دورهم الكبير فى الاتجاه إلى اللغة القديمة فى البادية لاتخاذها مثلا أعلى يحتذى فى مفرداتها، وتراكيبها، وأنماط الأساليب المختلفة فيها، وكذلك الاتجاه إلى الفن الشعرى القديم على أنه النموذج الأمثل الذى يجب الاهتداء به والاقتداءُ بتقاليده.

ويمكن توضيح ذلك على النحو التالى :

كان هناك نفر غير قليل من شعراء البادية يتجهون إلى الحواضر يمدونها بسليقتهم العربية المستقيمة ويقدمون لهم تراث العربية فى نقاء وإتقان، وقد تحول نفر كبير من هؤلاء الشعراء إلى معلّمين للناشئة وغيرهم من الراغبين فى اتقان اللغة ورواية الشعر القديم[1].

ومن أبرز هؤلاء الشعراء : أبو البيداء، وابن الدمينة، وابن ميادة، وأبو ضمضم الكلابى، والعمانى، وشبيل بن عزرة الضبعى، وغيرهم.

وقد بذل علماء اللغة منذ أواخر عصر بنى أمية جهدًا كبيرًا فى جمع ألفاظ اللغة وأشعار الجاهلية والإسلام، والسبب الرئيس فى بذل هذه الجهود هو نشر لغة القرآن وحمايتها من اللحن على ألسنة الموالى المستعربين، خاصة وأن الكثرين من أولاد العرب قد نشئوا فى حجور أمهاتهم الأعجميات فضعفت فيهم السليقة وأخذ اللحن يفشو من أجل هذا كله قام علماء الكوفة والبصرة فى أواخر العصر الأموى بجهود هامة وأصيلة فى حماية اللغة، وقد احتاطوا لسلامة اللغة احتياطًا واسعاً فلم يأخذوا اللغة من عربى متحضر بل رحلوا فى طلبها إلى قلب الجزيرة حيث ينابيعها الصافية «وكانوا بذلك يقصدون غايتين : أولاهما : أن يقوّموا ألسنتهم ويكتسبوا السليقة اللغوية السليمة. وثانيتهما : أن يلتقطوا من الأفواه مباشرة مادتهم اللغوية الصحيحة التى يعرضونها على الناشئة وفى حلقات المساجد»[2].

---

(١) الفهرست لابن النديم ص٦٥ ط القاهرة وانظر : المستوى اللغوى للفصحى واللهجات للنثر والشعر د. محمد عيد الفصلين الثانى والثالث، طعالم الكتب.

(٢) العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف ص١١٨.

ويصور أبو نصر الفارابى دقة هؤلاء العلماء وحرصهم فى الحفاظ على اللغة من كل لحن ودخل فيوضح أنهم أخذوا اللسان العربى من قيس وتميم وأسد ولم يأخذوا من أهل حذام لمجاورتهم أهل مصر، ولا من أهل قضاعة وغسان لمجاورتهم أهل الشام، ولا من بكر لمجاورتهم الفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن، ولا من حاضرة الحجاز لأنهم خالطوا غيرهم من الأمم فى ذلك الحين[1].

بل كان التوغل فى نجد لسلامة لغتها وكان أبو عمرو بن العلاء وهو شيخ العلماء وإمامهم يقول: «لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية»[2] يقصد الجزء العربى من نجد وما يترامى إليه.

ويمكن تحديد أجيال علماء اللغة منذ أواخر العصر الأموى على النحو التالى: الجيل الأول فى البصرة وعلى رأسه أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ وعنه يقول الجاحظ «كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس»[3].

وفى مقدمة رجال الجيل الثانى لعلماء اللغة خلف الأحمر المتوفى سنة ١٨٠ هـ، والأصمعى المتوفى سنة ٢١٣ هـ، وأبو زيد الأنصارى المتوفى سنة ٢١٤ هـ، وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ هـ - وعن الأصمعى رويت أشهر الدواوين وهى لامرئ القيس، والنابغة، وزهير، وطرفة، وعنترة، وعلقمة بن عبدة.

وأهم أفراد الجيل الثالث محمد بن سلام الجمحى صاحب طبقات الشعراء (١٣٩ - ٢٣١).

وكان فى الكوفة مدرسة من العلماء يشكل الجيل الأول فيها حماد الرواية

---

(١) النص بتصرف واختصار عن المزهر للسيوطى ط الحلبى ٢١١/١.
وراجع: المستوى اللغوى د. محمد عيد. الفصل الثانى وخريطة القبائل ص٦٧.

(٢) نقلا عن العصر الجاهلى الأول د. شوقى ضيف ص١١٩.

(٣) السابق.

المتوفى سنة ١٥٦ هـ، والمفضل الضبي ذلك الثقة الصدوق الحجة فى اللغة والغريب صاحب المجموعة الشعرية المعروفة بالمفضليات.

وأشهر أفراد الجيل الثانى أبو عمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢١٣ هـ وابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ هـ ومن الجيل الثالث ابن الأعرابى أيضاً وكذلك أبو عبيد القاسم بن سلام وهو صاحب غريب الحديث[١].

والذى يهمنا هو القول بأن جهود علماء اللغة منذ أواخر عصر بنى أمية كانت آخذة فى تبوء مكانتها للحفاظ الدقيق على اللغة فى شتى المستويات.

فلما كان العصر العباسى تحولت السليقة العربية السليمة إلى شعراء الحضر، فقد جمع علماء اللغة الشعر الجاهلى والإسلامى ووضعوا المقاييس اللغوية فى صورة واضحة ودقيقة وظلوا يبعثون فى شعراء الحضر الإيمان بأن الشعر القديم هو المثل الأعلى والقدوة الرفيقة، وكان من علماء اللغة ورواتها شعراء مقتدرون مثل حماد الراوية وخلف الأحمر والخليل بن أحمد.

وكان علماء اللغة يعنون كثيرًا بعرض نماذج الشعر القديم المليئة بالحوشىّ والغريب يقول الجاحظ: «لم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إغراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج»[٢].

وأهم المجموعات الشعرية التى قدمت للشعراء آنذاك مجموعتان هما المفضليات للضبي الكوفى، والأصمعيات للأصمعى البصرى، ويمكن القول «بأن اللغويين لم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلى أو إسلامى إلا سجلوها ودونوها، وفسروها وشرحوها وبذلك انقادت اللغة وسلست لمعاصريهم من الشعراء وغير الشعراء»[٣].

وكان هناك سببان للعناية باللغة على هذا النحو فى العصر العباسى وهما

---

(١) راجع الموضع بتوسع فى المرجع السابق ص١١٩ وما بعدها.

(٢) البيان والتبيين ٢٤/٤.

(٣) العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف ص١٣٩.

العناية بفهم القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، وثانيهما : عامل سياسى فعال هو أن خلفاء بنى العباس لم يعتمدوا فى تأسيس دولتهم وإقامة دعائم الحكم فيها على العنصر العربى بل على الفرس، وحتى لا يُتَّهم الخلفاء فى ولائهم للعروبة والإسلام، وهم أهل بيت النبى عليه السلام أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وتراث العربية وشجعوا العلماء تشجيعًا كبيرًا على رواية ودراسة كل ما يتصل باللغة وأخبارها من أنساب وأيام وأشعار، وكان الخلفاء العباسيون لا يستوزرون ولا يسندون الوظائف الكبيرة فى الدولة إلا إلى من حذق اللغة وبرع فيها، وقد أخذوا أبناءهم بتعلمها وإتقانها وأحضروا لهم كبار المعلمين من اللغويين المتأدبين، وقد جمع المفضل الضَّبى مجموعته الشعرية المشهورة من أجل المهدى وهو لما يزل ناشئًا فى رعاية أبيه، وكانت مجالس الخلفاء عامرة باللغويين والشعراء والأدباء، وكان الخلفاء أنفسهم على مستوى راق من الثقافة اللغوية والأدبية وكانوا يفاضلون بين الأدباء ويهبونهم المنح والعطايا طبقًا لمراتبهم فى العلم والأدب[1].

وفى هذا العصر يمكن القول بأن علماء اللغة كانوا سدنة الشعر وحراسه، وبلغ من سلطانهم أنهم كانوا يمنحون الشعراء جواز المرور، أو إجازة الشعر التى يصبحون بها مؤهلين لمواجهة الجمهور بأشعارهم، إذ كان الشعراء يعرضون عليهم أشعارهم قبل إنشادها فى المحافل فإذا استحسنها العلماء أمكن للشاعر أن يواجه المحافل الكبيرة، وإلا عاد الشاعر إلى المران والدربة ليصل إلى الإتقان، يروى صاحب الأغانى : أن مروان بن أبى حفصة لما نظم قصيدته (طرقتك زائرة فحىّ خيالها) عرضها على يونس النحوى فى حلقة درسه فأعجب بها يونس وقال له : إنها بريئة من العيوب. وحينئذ مضى الشاعر إلى المهدى فأنشدها بين يديه، فزحف المهدى من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجابًا بما سمع. ثم قال لمروان كم هى؟ قال مروان : مائة بيت. فأمر له بمائة ألف درهم.

---

(١) راجع على سبيل المثال : عصر المأمون فريد رفاعى المجلد الأول ٣٧٥ - ٤٠٦ ط ١٩٢٧.

ويعقد المرزباني في كتابه الموشح فصلاً طويلاً يصور فيه كيف كان الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين ليجيزوها لهم، يقول الخليل بن أحمد لابن مناذر: «إنما أنتم - معشر الشعراء - تبع لي. وأنا سُكّان السفينة إن قرطتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم»[1].

وهكذا سيطر اللغويون على سوق الشعر في العصر العباسي وتعصبوا لشعر القديم واتخذوه المثل الأعلى للشعر، ولم يقبل كثير من علماء اللغة الاحتجاج بالشعر العباسي، فكان أبو عمرو بن العلاء يختم الشعراء بذي الرمة، وكان الأصمعي يختم الشعر بابن مياده، وابن هرمه من شعراء نجد والحجاز ممن أدركوا الدولة العباسية، والناقد الفني لا يوافق اللغويين على إهدار شعر العباسيين من الناحية الفنية ذلك أن المستوى الفني للشعر العباسي يحتل مكانة واسعة في الحلقة الذهبية لتاريخ الشعر العربي. هذا من الناحية الفنية، أما المستوى اللغوي لهذا الشعر فقد أثبت البحث والدرس في زمن العباسيين ومن والاهم صحة لغة الشعراء العباسيين، وما أُخذ على بعضهم له تخريج في العربية. ولكن علماء اللغة في تشددهم كان يحفزهم عامل ديني له قيمته الكبرى وهو وثاقة لغة القرآن الكريم من جهة، وإيمانهم من جهة أخرى بأن المثل الشعري الأعلى هو الصورة التي رسمها الشعر القديم: «وحتى يحتفظوا له بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة»[2] أغلقوا الباب أمام الشعراء المحدثين وذهبوا يعدّون عليهم سقطاتهم، وهذه السقطات ليست أخطاء بالمعنى الصحيح فهي إما لغات غير مشهورة أو شاذة وإما اشتقاقات وأبنية استحدثوها في ضوء المقاييس والقواعد اللغوية التي تعلموها من علماء اللغة أنفسهم.

وكان الشعراء يثقفون أنفسهم ثقافة لغوية وأدبية واسعة تجعل خطأهم أمرًا بعيدًا. فهذا أبو نواس يتزود باللغة على يد خلف الأحمر ثم يمضي إلى البادية فيقيم بها حولاً كاملاً ينهل اللغة من ينابيعها، ثم يقبل على دواوين الجاهليين

---

(١) الأغاني ١٦/١٧.

(٢) العصر العباسي الأول ص ١٤١ د. شوقي ضيف.

والإسلاميين فيحفظها، ويقول الجاحظ عنه: «ما رأيت أحدًا كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة الاستكراه» ويقول أبو عمر الشيباني: «لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفث لاحتججنا بشعره لأنه محكم القول» وبشار قبل أبي نواس بلغ من إتقانه اللغة أنه كان يتحدى في ثقة واقتدار، ويروى عنه صاحب الأغاني مواقف متنوعة في ذلك[1].

وهكذا كان الشاعر العباسي المولّد أو الفارسي الأصل عرب اللغة إلى أرفع مستوى وأرقى غاية. والذي لا شك فيه أن علماء اللغة بجهودهم الواسعة هيئوا للشاعر العباسي العلم بالشعر القديم بما جمعوا له منه، وبما يسروا له من قواعد تعلم العربية وإتقانها، وساعد على ذلك تشجيع الخلافة للعلم بحيث كان العلم والتعلم ميسرًا إلى أبعد مدى على نحو ما أوضحنا ذلك فيما سبق.

ونظرًا لازدهار الحياة اللغوية والأدبية وتمكن الأدباء وثقتهم بأنفسهم، وإجادة سيطرتهم على الفن الشعري الذي أحبوه وعاشوا له أخذت اللغة من ناحية والفن من ناحية أخرى يزدهران على أيديهم، ومن هنا جاء أسلوب المحدثين أو المولدين في النهضة الشعرية يقوم بناؤه اللغوي وتقاليده الفنية العامة على أساس التراث اللغوي وعمود الشعر العربي إلى جانب طابع الذوق الحضري الجديد، فبينما المحافظة على اللغة في مادتها وطرائق تراكيبها وأساليب اشتقاقها أمر مقدس، فإن طابع العصر وملاءمة الفن الشعري للحياة الجديدة واستيعابه لها وللأبعاد الإنسانية المعاصرة بدا أمرًا مرغوبًا فيه إلى حد بعيد، بل كان يفرض نفسه فرضًا، ولذلك نرى أبا العتاهية ينكر على ابن مناذر إسرافه في قول الأراجيز المحشوة بغرائب الألفاظ ويقول له: «وإن كنت أردت بشعرك العجاج ورؤبة فما صنعت شيئًا، وإن كنت أردت أهل زمانك فما أخذت مأخذنا»[2].

وقد استطاع أبو العتاهية وشعراء عصره بمهارتهم الفائقة أن يذيعوا أسلوبًا

---

(١) السابق، وراجع ترجمته في الأغاني وحديث معارضته لعقبة بن رؤبة في أرجوزته التي أنشدها في مجلس عقبة بن مسلم بن قتيبة وقصيدة بشار التي مطلعها: باطل الحي بذات الصمد.

(٢) الأغاني ٤/٩٠ دار الكتب.

متميزًا يبتعدون فيه عن خشونة البدو وكزازة ألفاظهم واتجهوا إلى تلك الألفاظ التى تتميز بالعذوبة والرشاقة حينًا والجزالة والرصانة حينًا آخر، بل والشعبية المبتذلة أحيانًا وهم فى كل ذلك ذوق متحضر محبب ينفر من الغرابة والوحشية.

وبشار فى مقدمة من أرسوا دعائم الأسلوب المولّد، يقول عنه ابن المعتز: «كان بشار يعد فى الخطباء والبلغاء... وكان شعره أنقى من الراحة وأصفى من الزجاجة وأسلس على اللسان من الماء العذب»[1] وهكذا من بداية العصر العباسى ظهر هذا الأسلوب الجديد الذى يتطور إلى الصنعة والتصنيع على يد، والبحترى وأبى تمام ومن والاهما، ثم عاد فاتخذ طريق العربية المثلى من الرصانة والقوة والسلاسة والوضوح، على يد المتنبى ومن أحبوا فنه وطريقته، وسوف تكشف دراسة الشعر والشعراء فى هذا الكتاب عن كل هذا.

السمات الفنية التى أثمرتها الحياة الثقافية والعقلية لدى الشعراء العباسيين

كانت للحياة العقلية الجديدة وللثقافات المترجمة التى انتقلت إلى اللغة العربية، ولتأثيرات الحياة الاجتماعية فى النفوس والأذواق والعقول وللمدارس العلمية والمذاهب الفكرية وللنحل والعقائد آثارها البعيدة المدى فى الأدب العباسى، وسوف نعرض بإيجاز شديد لأبرز هذه السمات مشفوعة بنماذجها الشعرية التى تدل عليها.

(أ) شاع فى هذا العصر الجدل فى مباحث علم الكلام وقد تأثر الشعراء بهذا اللون من الجدل وبالتفكير الفلسفى ، وكان بشار بن برد يعدّ من أصحاب الكلام، وكان كثير الاختلاف إلى مجالس واصل بن عطاء رأس جماعة المعتزلة وكان من أهم المشكلات التى يثور حولها الجدل فكرة الجبر والاختيار وكان واصل يرفض فكرة الجبر، ولكن بشارًا مضى فى بعض أشعاره يعارض

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٨ تحقيق عبد الستار فراج ط دار المعارف.

«واصلاً» ويصور أن الإنسان مسير لا مخير وفى ذلك يقول :

طبعت على ما فىّ غيرَ مُخيَّرٍ هوايَ ولو خيِّرت كنتُ المهذبا
أريد فلا أُعطى وأُعطى ولم أُرد ويقصُر عِلْمى أن أنال المُغيّبا
فأُصرفُ عن قصدى وعِلمى مقصِّرٌ وأُمسى وما أعقبتُ إلا التعجبا

ومن ذلك أيضًا أن النظّام كان ينكر فكرة الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزأ، وتجادل فى ذلك طويلا مع المعتزلة وقد ألم أبو نواس بأساس هذه الفكرة فى أبياتٍ غزله يقول فيها للمحبوب :

يسا عاقدَ القلب عنّى هلاَّ تذكرت حلاَّ
تركتَ منّى قليلا من القليل أقلاَّ
يكادُ لا يتَجزّا أقلّ فى اللفظ من «لا»

ويقول أبو نواس أيضاً فى شخص كان يبغضه وقد استخدم فى قوله الإشارة إلى فكرة الكمُون :

كَمُن الشأن فيه لنا ككمون النار فى حجرِه

وكان النظام يرى أن الله سبحانه وتعالى خلق الموجودات دفعة واحدة ثم جعل بعضها كامنًا فى بعض على نحو ما أكمن فى آدم أبناءه من بعده.

وكان أبو نواس أيضاً يؤمن بفكرة المرجئة فى أن الله من حقه أن يترك وعيده للعاصى الذى ارتكب جرمًا وأن يغمره بعفوه، وكان المعتزلة يرون وجوب صدق الوعد والوعيد لأن ذلك لازم لصفة العدل، ورد عليهم أبو نواس متابعًا فكر النظام وهو شيخ المرجئة، يقول أبو نواس :

فقلْ لمن يدعّى فى العلم فلسفةً حفظتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياءُ
لا تحظُرِ العفو إن كنت امرءًا حَرِجا فإن حَظْرَكه بالدين إزراءُ

ويتجلى فى كلام الشعراء كثير من مصطلحات المنطق وغيره من العلوم، مما يدل على أنّ ثقافة العصر المتنوعة قد أثرت تأثيرًا مباشرًا فى المادة الفكرية

للشعراء وقد انعكس ذلك فى كثير من أشعارهم

وكان أبو تمام نفسه يتعمق مذهب الاعتزال وعلم الكلام ومن خلالهما المنطق والفلسفة، يقول فى أحد ممدوحيه :

صاغهم ذو الجلال من جوهر المَجْ ... دِ وصاغ الأنامَ من عَرَضِه

ويعتمد فى وصفه الخمر على مذهب الجهمية فى أسماء الله وصفاته، حيث كان جهم يمتنع عن تسميته تعالى باسمٍ حتى لا يثبت شيئاً عليه من التشبيه بالمخلوقات، وقد استمد أبو تمام شيئاً من هذه الفكرة فى نعته الخمر فى البيت التالى :

جهميةُ الأوصافِ إلا أنهم ... قد لقبوها جوهر الأشياءِ

«فالخمر فى رأيه رقت حتى كادت لا تبين ، بل حتى كادت لا تسمى - على مذهب جهم - باسم، ولكنها لعظم شأنها لقّبت جوهر الأشياء»[1].

(ب) توليد المعانى نتيجة التأمل العقلى :

نظرًا لشيوع الثقافات ذات الطابع الفكرى والفلسفى ونظرًا لاتساع الحياة الفكرية والثقافية ونتيجة لإقبال الشعراء على فنهم وعنايتهم بتجويده والابتكار فيه، نلاحظ شيوع سمة التوليد للمعانى نتيجة التأمل العقلى وتنوع الثقافة والرغبة فى الابتكار، فأبو تمام يصور جمال صواحبه فى ساعة الوداع فيقول :

ولهتْ فأظلم كلُّ شيءٍ دونَها ... وأنارَ منها كلُّ شيءٍ مظلمِ

ويقول فى أخرى :

بيضاءُ تسرى فى الظَّلام فيكْتسى ... نورا وتَسْرُبُ فى الضياء فيُظْلمُ

وأبو تمام مشهور بأنه كان يملك القدرة على التوليد حتى فى موقف التحدى، كما فى قصته مع الفيلسوف يعقوب الكندى وسيأتى ذكرها فى ترجمة أبى تمام.

---

(١) انظر العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف ص١٥٣ - ١٥٨.

ومن التوليدات الجيدة قول ابن الرومى :

وإذا امرؤٌ مدح امرأً لنواله ... وأطال فيه فقد أطال هجاءَهُ
لو لم يُقلِّلْ فيه بُعدَ المُشْتهى ... عند الورود لَمَا أطال رشاءَهُ

ومن تلك التوليدات التى تدل على صنعة وتدبّر عقلى طويل قول اسحق بن إبراهيم الموصلى :

أخافُ عليها العينَ من طول وصلها ... فأهجرها الشهرين خوفًا من الهجر
وما كان هِجْرانى لها عن مَلالةٍ ... ولكننى أمَلْتُ عاقبةَ الصبر
أُفكِّر فى قلبى بأى عقوبة ... أُعاقبه فيكم لترضَوْا فما أدْرى
سوى هجرِكم والهجرُ فيه دمارُه ... فعاقبتُه فيكم من الهجر بالهجر
فكنتُ كمن خاف الندى أن يَبلَّه ... فعاذ من الميزاب والقطْرِ بالبحر

(ج) اتساع الخيال وإبداع التصوير[1] :

نتيجة اتساع الثقافة وتبعاً للقدرة على التأمل الفكرى والنفسى الذى ساعدهم على توليد المعانى وتركيب الصور من عناصر غير مُتداولة، وتبعا لمواهبهم المتنوعة فإن اتساع الخيال كان سمة واضحة فى الشعر العباسى، وقد ساعد ذلك على بناء صور فنية جديدة مبتكرة ومن أمثلة ذلك ما هو شائع ومعروف لدى ابن الرومى ومن أشهر ذلك وصفه للأحدب فى قوله :

قَصُرتْ أخادعه وغاص قَذَالُه ... فكأنه متربص أن يُصفعا
وكأنما صُفعتْ قفاه مرةً ... وأحسّ ثانيةً لها فتجمّعا

ومن أجمل ذلك قوله فى وصف المغنيات يحملن آلات الغناء :

وقيانٍ كأنهنّ أُمهاتٌ ... عاطفاتٌ على بنيها حَوَانى
مُطْفلاتٌ وما حملْنَ جنينًا ... مرضعاتٌ ولسْنَ ذاتَ لِبانِ
مُلقماتٌ أطفالَهن ثُديًا ... ناهدات كأحسن الرُّمان

(١) انظر الأدب العربى وتاريخه فى العصر العباسى محمود مصطفى ص٢٨ ج ٢ ط ٢.

مُفْعَماتٍ كأنهـــا حـــافلاتٌ وهـى صِفْرٌ مـن دِرَّةِ الأَلْبـان
كلُّ طفلٍ يُدْعى بأسماء شـتى بـين عـود ومِـــزْهر وكِرانِ
أُمُّـهُ دهـرَها تُـترجم عنْـه وهْوَ بادى الغِنَى عـن التَّرْجُمان

وقول أبى اسحق إبراهيم بن موسى :

غـزَّتنى بجيشٍ مـن محـاسِن وجْههـا فَعَيِّى لها طرفى ليـدفعَ عـن قلـبى
فلما التـقى الجيشـان أقبـلَ طـرفُها يريدُ اغتصابَ القلبِ قسراً على الحرْب
ولما تجـارحْنا بـأسيافِ لحـظنا جعلتُ فؤادى فى يديها على العَضب
وناديتُ مـن وقْـع الأسِّـنة والقَنَـا على كبدى يـا صـاح مـالى وللحُـبِّ
فصرتُ صريعًا للهـوى وسْـط عسـكر قتيلَ عيـونِ الغـانياتِ بـلا ذَنْـب

(د) المبالغة الشديدة والتهويل الزائد[1] :

وهذه السمة فى الحق من طباع الفرس، ونظام حياتهم الاجتماعية وقد ظهر ذلك فى العصر العباسى فى الشعر والكتابة، ومن آثاره فى الحياة الاجتماعيـة والسياسية المبالغة فى تجبير الألقاب والنعـوت والصـفات، ومـن أمثلـة تلك المبالغات قول منصور النمرى فى الرشيد قولا خرج به إلى المبالغة المرذولة :

خليفـةَ الله إن الجـودَ أوديـــةٌ أحلَّك الله منهـا حيـث تجتمـع
مـن لم يكن ببنى العبـاس معتصماً فليس بـالصلوات الخمس ينتفـعُ
إن أَخْلفَ القَـطْرُ لم تُخْلِفْ مخـايلُه أو ضـاق أمـرٌ ذكرنـاه فيتسـع

وقول محمد بن وهيب يمدح المعتصم :

ثـلاثةٌ تشرق الـدنيا ببهجتهـا شمسُ الضُّحى وأبـو إسحاق والقمرُ
فـالشمس تحكيه فى الإشراق طـالعةً إذا تقـطّع عـن إدراكهـا النـظر
والبـدرُ يحكيه فى الـظلماءِ مُنْبلجًـا إذا اسـتنارت ليـاليه بـه الغـرر

(١) السابق ص ٣٠.

إلى أن يقول :

فالخَلْقُ جسمٌ له رأسٌ يدبِّره وأنتَ جارحتاه السمْعُ والبصرُ

ومن المبالغة الزائدة عن حد المعقول والمقبول قول أبى نواس يمدح الرشيد :

وأخفتَ أهلَ الشرْكِ حتى إنَّه لتخافُك النُّطفُ التى لم تُخْلق

(هـ) الإكثار من الحكمة وتعمد استقصائها :

وهذه الظاهرة تتصل اتصالا قويًا بالعمق الثقافى من جهة وبظاهرة توليد المعانى وتأملها وإدمان التفكير فيها وقدرة الشاعر على تأمل الحياة وفهم تجاربها من جهة أخرى، وهى من هذا المنطلق معين خصب للشاعر المقتدر على تلقى وحيها والارتفاع إلى مستواها الخالد فى تاريخ الكلمة الفنية. وقد عظمت الحكمة لدى كثير من شعراء العصر العباسى منذ بشار حتى بلغت قمتها لدى أبى تمام والمتنبى وأبى العلاء، ومعلوم أن الحكمة ظاهرة قديمة فى الشعر العربى. ولكنها تحولت فى العصر العباسى إلى آفاق جديدة تناسب عمق الثقافة وتنوع التجارب ودقة التأمل.

ومما قاله بشار فى ذلك :

إذا بلغ الرأىُ المشورةَ فاستعنْ برأى نصيح أو نصيحةِ حازمِ
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً فإن الخوافى قوةٌ للقوادمِ
وما خيرُ كف أمسك الغلُّ أختَها وما خيرُ سيفٍ لم يُؤيَّد بقائم
وخلِّ الهوينى للضعيفِ ولا تكنْ نئومًا فإنَّ الحرَّ ليس بنائم

وقول المتنبى :

والهمُّ يخترمُ الجسيمَ نحافةً ويُشيب ناصيةَ الغلام ويُهرِمُ
ذُو العقل يشقَى فى النعيم بعقله وأخو الجهالةِ فى الشقاوة ينعمُ
لا يسلم الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يُراق على جوانبه الدمُ
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يظلمُ

ومن البليّة عذلُ من لا يرْعَوى ... عن جهله وخطابُ من لا يفهمُ
والذل يُظْهر فى الذليل مودةً ... وأودُّ منه لمن يودّ الأرقمُ
ومن العداوةِ ما ينالُكَ نفعُه ... ومن الصداقهِ ما يضرّ ويؤلمُ

وقوله :

وإذا لم تجدّ من الناس كُفْئًا ... ذاتُ خدر تمنّت الموتَ بعلا
وإذا الشيخ قال أفٌّ فما ... ملّ حياةً وإنما الشيبَ ملا
آلةُ العيش صحةٌ وشبابٌ ... فإذا ولّيا عن المرء ولّى

ويقول أبو العلاء المعرى :

لعل أُناسًا فى الهاربِ خوّفوا ... بآى كتاس فى المشارب أطربوا
إذا رام كيداً بالصلاة مقيمُها ... فتاركها عمدًا إلى الله أقربُ

ويقول أيضاً :

الدّينُ إنصافُك الأقوامَ كلّهمُ ... وأىُّ دينٍ لآبى الحق إنْ وجبا
والمرءُ يُعْييه قوْدُ النفس مُصْحَبَةً ... للخير وهْوَ يقود الجحفلَ اللّجبا

ويقول أيضاً :

إذا أُلف الشىءُ استهان به الفتى ... فلم يرهُ بؤسَى تُعَدُّ ولا نُعمى
كإنفاقه من عمره ومساغِه ... من الرّيق عذبًا لا يُحِسُّ له طعما
وما ارتاب فى لُقيا الرّدَى وكأنه ... حديثٌ أتى من كاذب يُبطلُ الزّعْما

ملامح التجديد
فى الموضوعات والأغراض فى الشعر العباسى

يمكن القول بأن الشعر فى العصر العباسى انتقل إلى طور جديد بعد تطور الحياة إلى مسارها الجديد فى هذا العصر، ويمكن تحديد هذا التطور فى خطين رئيسين :

أولهما : ظهور أغراض واتجاهات جديدة فى الشعر منها مثلا :

الشعر الفلسفى الذى يحاول فيه الشاعر النظر التحليلى فى الحياة من حوله. وهى فلسفة أساسها التأمل وليس النظرية، والاجتهاد الجزئى وليس التحليل الكلى، ولا نعنى بذلك شعر الحكمة بل شعر التجارب الإنسانية والخوض فى تفسيرها وتحليلها وسيد هذا الاتجاه وقته أبو العلاء المعرى حيث ارتفع على يديه إلى آفاق ستظلّ تحظى بالاحترام والخلود.

وكذلك الشعر الصوفى الذى يتجة بالغزل الإنسانى - وبعبارة أدق بالحب الإنسانى - إلى وظيفة روحية عليا تربط الإنسان بل الوجود بخالقه الأعلى، وهو شعر لا يقف عند حدود التأمل الجزئى بل يتعداه إلى نظرة فلسفية شاملة، وهو يطرق موضوعات ويقدم أفكاراً غاية فى الرفعة والكمال منها صفات الله وكمالاته، وعلاقة العبد بسيده وأشواقه على طريق الحب الإلهى.. وقد انتهى دور هذا الشعر فى أرقى كمالاته الروحية وغموضه الفنى فى شعر ابن الفارض وأضرابه.

وظهر كذلك الشعر التعليمى الذى عمد إليه كبار أساتذة الفنون والعلوم تسهيلا على الطلاب فى حفظ مفردات المادة العلمية، وظهر أيضاً شعر القصص والحكايات، والشعر الهزلى والتهكمى.

ونشأ شعر الزهد الذى جعله أبو العتاهية بابًا واسعًا للتأمل والموعظة ثم

اتسع وقام بدوره فى التسرية عن المحرومين والمظلومين. كما أصبحت الخمريات ذات كيان مستقل واتسع القول فيها وتجددت ألوانه حتى غدا كأنه غرض جديد فى الشعر العربى نتيجة التطور الهائل الذى طرأ عليه، وفى تيار اللهو والمجون توارى الغزل العذرى العفيف وارتفعت فى الساحة أجراس الغزل الحسى ووصل درجة بعيدة من القبح والشناعة فى بعض نماذجه نتيجة لاتساع حياة اللهو والمجون.

وقد اقتضى هذا التطور فى الأغراض والموضوعات استقلال الفكرة الواحدة بقصيدة كاملة. وكانت هذه السمة الفنية فى بناء القصيدة بابًا جيدًا لتخليد قيمة الفن الشعرى.

ثانيها: تطور يتعلق بالأغراض الكبرى فى الشعر القديم كالغزل والمدح. وطبيعى أن يهم بالقول فيها الشاعر العباسى، لكن التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية أثرت تأثيرات مختلفة على العناصر الفنية التى يبنى منها الشاعر هذه الأغراض المألوفة، ومن ثم نجد أنواعًا من التطور داخل هذه الأغراض يمكن أن نستوضحها فى إجمال فى غرض المدح الذى كان يحتل رقعة واسعة فى الشعر العباسى لأنه شعر الخلفاء والأمراء وباب الرزق الواسع للشعراء ومدرجة الطموح إلى مراكز الدولة وصلاتها.

نعم كان المدح غرضًا بيّنًا فى الشعر الجاهلى. وكان يحمل الشاعر على القول فيه تأثره بموقف نبيل للممدوح فيديح خواطره ومشاعره وأفكاره شعرًا تسير به الركبان، تكريمًا وتخليدًا لهذه المحمدة أو ذلك الصنيع، ولم يكن الشاعر أول الأمر يتكسب بالشعر، ولم تكن مدائحه لاهثة وراء الرفد والعطايا، حتى ظهر النابغة وقبل صلات الغساسة والمناذرة، وكسب من الشعر كسبًا عظيمًا «حتى قيل إن أكله وشربه كانا فى صحاف الذهب والفضة، وكذلك تكسب زهير بالشعر مع هَرِم بن سنان وقد انقطع زهير لمدحه، حتى بلغ من شأن «هرم» أنه أقسم ألا (يكلّمه) زهير إلا أعطاه: عبدًا أو وليدة أو فرسًا. فاستحيا زهير من كثرة ما كان يُعطى له، وابتدع عبارة جميلة يحيى بها «هرم

بن سنان» وفى الوقت ذاته يحلُّلهُ من قسَمه فى العطاء، فكان إذا رآه فى ملأ قال: «عِمُوا صباحًا غير هرم وخيرَكم استثنيت»[١].

وعلى يد الأعشى أصبح الشعر متجرًا يتَّجر فيه ويطوف به البلدان حتى قيل إنه مدح ملك العجم وأجزل له العطاء[٢].

ثم عمت البلوى فى الاستجداء بالشعر وأصبح إلحاح الشاعر بطلب العطاء أمرًا مقررًا، بل أصبح الشعر بالنسبة لكثير من الشعراء بابًا للرزق، وقد عُيِّر أبو تمام بذلك إذ يقول له قائل:

أنت بين اثنتين تبرز للنَّا ... سِ لكلتيهما بوجه مُدال
لستَ تنفكّ طالبًا لوصالٍ ... من حبيبٍ أو راغبًا فى نوال
أىّ ماءٍ لحرّ وجهك يبقى ... بين ذُلّ الهوى وذلّ السؤال

ونحاول أن نتبين الآن ما طرأ على المدح من تطور أو تجديد:

لقد كان الشاعر الجاهلى وكذلك الإسلامى يوضح القيمة الحقيقية التى تقدِّرها الجماعة للفعل النبيل الذى قام به الممدوح، وكان يكشف الشاعر عن الفضيلة التى قام أو تحلى بها الممدوح، كالكرم أو دفع الديات أو قيادة الجيش أو الدفاع عن قومه أو سعة عطائه، أو شجاعته وبلائه، أو ما إلى ذلك من الفضائل التى كانت سائدة فى حياتهم، والشاعر فى ذلك كان يحبب المعانى والقيم التى تقدرها الجماعة وتتطلع إليها وتتمسك بها.

فلما كان الشعر العباسى تفنن الشعراء فى تصوير المثل الأعلى للقيم التى يمدحون بها كالسماحة والكرم والحلم والحزم والشجاعة والبأس. وغيرها، وقد استطاعوا بعقولهم الخصبة وتوليداتهم الذهنية ومبالغاتهم وقدرتهم على التخييل والتصوير الفنى تجسيد هذه المعانى، وكانوا يرسمون صورة مثالية للصفات التى يتحلى بها الممدوح حتى لو كان الممدوح دون ذلك، فهم يرسمون المثل الأعلى فى

(١) انظر كتاب الشعر الجاهلى ص ٢١٩-٢٢٠ ط الشباب القاهرة.
(٢) أسس النقد الأدبى د. أحمد بدوى ص ١٨٠ ط ٣ سنة ١٩٦٣.

قصيدة المدح وكأنما يوجهون نظر الممدوح إلى وجوب التمسك بهذه الصورة المثل التى رسموها له، ويمكن القول بأن الجديد فى هذه النقطة هو تناول الشاعر لصفة واحدة أو صفات متعددة من الفضائل يظل يلح عليها ويرسم مثلها الأعلى ويعقد صلة بين هذا المثل الأعلى والممدوح، وهكذا أصبح المثل الأعلى للفضائل هو غاية الشعر فى التصوير والتعبير. فإذا كانت تلك الفضائل أو بعضها على النحو الذى رسمه الشاعر قائمة فى الممدوح كانت المدحة صادقة قوية، وإن كان الأمر على خلاف ذلك كان توجّه المدح إلى المثل الأعلى فى ذاته، وكأن الشاعر بذلك يرفع أمام الخليفة الشعارات والآمال التى تتطلّبها الرعية فيه.

والشعراء فى تصويرهم لهذه المعانى كانوا يلحون عليها ويستقصون أطرافها بتوليداتهم العقلية وثقافتهم الواسعة، وتنافسهم فى الوصول إلى مستوى شعرى يضمن للشاعر الفوز والتميّز بين زملائه الذين تناولوا هذا المعنى قبله أو معه أو الذين سيتناولونه بعده، ولذلك شاع فى النقد العربى أن يتتبع النقاد المعنى الواحد لدى السابقين واللاحقين ليفاضلوا بين الشعراء.

وكان الشعراء يضيفون إلى الصورة المثالية التى يرسمونها للقيم الحديث عن المناسبات الخاصة التى أدت إلى مدح الممدوح، حيث يسجلون انتصاراته فى الحرب والسياسة والأعمال الكبرى التى تنسب إليه، كما فى مدح أبى تمام للمتعصم فى فتح عمورية وما أكثر الأحداث والمناسبات التى سجلها الشاعر العباسى فى مدائحه، وبذلك يعد الشعر وثيقة أو مصدرًا تاريخيًا يعين المؤرخ على كثير من فهم الأحداث والكشف عن ملابساتها ومناسباتها المتعددة، وصفحات البطولة وأخبار المعارك إلى المدى الذى اعتنى معه الشعراء بالحديث عن تفاصيل المعارك الحربية.

وقد ازداد إقبال الخلفاء والولاة على شعر المدح وأجزلوا العطاء عليه لأنه كان السبيل إلى تخليد مآثرهم، وتسجيل تاريخهم وإعلاء شأنهم بين أندادهم السابقين واللاحقين، ولهذا السبب نفسه جرى الشعراء وراء مبالغات متعددة.

ووفقوا إلى أساليب فنية متنوعة وإلى ابتكار المعانى والتفنن فى توليدها والبراعة فى تصويرها، كل ذلك بسبب التنافس تارة وبسبب رغبة الخلفاء فى الإجادة والتفوق فى تخليد مآثرهم على أحسن وجه تارة أخرى، يضاف إلى ذلك دور الملكات الفنية العالية التى ظهرت بين شعراء هذا العصر وتركت آثارها متميزة فى تاريخنا الأدبى كأبى تمام والمتنبى.

وحتى نتبين طبيعة التطور الفنى الذى طرأ على قصيدة المدح فى العصر العباسى نحاول أن نضع بعض الظواهر الفنية فى قصيدة المدح موضع التحليل والمقارنة :

معلوم أن قصيدة المدح فى العصر الجاهلى وما بعده كانت تعتمد فى افتتاحها على مقدمة النسيب، ونظرًا لأن الشاعر العباسى كان علماء اللغة ونقدة الشعر يذكرونه دائمًا بالشعر العربى القديم مثلا أعلى فى طرائق إبداعه، فإنه كان يتجه إلى هذا التقليد الفنى الموروث، ومن جهة أخرى فإن الشاعر العباسى استجابة لحياته الاجتماعية والثقافية بعناصرها الحضارية الجديدة قد حوّر وغيّر فى عناصر مقدمة النسيب، وعلى يديه طرأت عليها سمات فنية جديدة.

فالمقدمة الطللية لم تعد السبب المباشر لسكْب الدموع حسرة على المنازل الداثرة والذكريات المولّية الضائعة بل نجد فى العصر العباسى شاعرًا مثل بشار يقف على الأطلال ليجعلها منبرًا للوعظ يعلن من فوقه آراءه فى الحياة والناس، فالذى يصيب المنازل من التدمير والتغيير يصيب الكائنات كلها، يقول بشار فى أرجوزته البائية التى يمدح فيها عقبة بن سلم :

يا دارُ بين الفَرْع والجِنَّاب	عفا عليها عُقَبُ الأعْقَاب
قد ذهبتْ والعيشُ للذَّهاب	لمّا عرفْناها على الخراب
ناديتُ هل أسمعُ من جَوَاب	وما بدارِ الحىِّ مِنْ كَرَّاب
إلا مَطَايا المِرْجل الصُّخَّاب	ومَلْعَبَ الأخْبَابِ والأحْبابِ
فانقلبتْ والدهْر ذو انقلابِ	ما أقربَ العامرَ من خَرَاب

فهو لا يكتفى بتحديد موقع الدار، ولا بمنادتها ولا برصد خرابها والوحشة

الجائمة عليها، بل يوضح لنا أن الذى أفناها هو تعاقب الأيام والليالى، وأن هذا البلى الذى أصابها إنما هو سنة الحياة التى لا تتبدل.

وبدلا من أن نستمع إلى مقدمة قيس بن ذريح صاحب لبنى التى يقول فيها :

عفا سرفٌ من أهله فسُراوعُ فجنْبا أريكٍ فالتّلاع الدوافعُ
فعُيْقةُ فالأخياف أخْيافُ ظبية بها من لُبْنى مُخرَفٌ ومرابع

إذا بنا نجد الشاعر العباسى أحيانًا قد بلغ فى الوقوف على الأطلال حدًا بعيدًا من السهولة ورشاقة الأسلوب، وقصر الوزن وخفته، فهذا أشجع السلمى يقول فى مقدمة احدى قصائده التى يمدح فيها جعفر بن يحيى :

قف بأطلالِ لسُعْدى دراساتٍ موحشاتِ
وبها وحْش فلاةٍ كالظباء الآنساتِ
كُنَّ أسباب المنَايَا ومحلّ الشهوات

وكان العرب قديما يدعو بالسقيا لمنازل الأحباب، ويصف ما نبت بها من خضرة وعشب. أما الشاعر العباسى فقد توسع فى ذلك إلى حد بعيد حتى أصبحت هذه السمة ظاهرة عامة، ولعل مرجع توسع الشاعر العباسى فى وصف المطر والخضرة بديار المحبوبة يمثل طبيعة الفرق بين بيئة الشاعر البدوى القديم، وبيئة الشاعر الحضرى الذى عرف الحدائق والبساتين، وبرك المياه والنافورات داخل القصور، وفى بيوت السراة. وسوف نقف فى دراستنا للشعر، على جوانب شتى تتصل بمجهودهم فى تصوير هذه المقدمة لاسيما أبو نواس وأبو تمام، فإذا كان الأول صاحب دعوة للخروج على مضمون المقدمة التقليدية، فإن الثانى صاحب ابتكارات فنية عجيبة داخل إطار هذه المقدمة التقليدية ولعل فى رؤية هذين الخطين ما يضيف كثيرًا من الجدة والتأصيل لدراسة هذه الظواهر الفنية التى ظلت تفرض نفسها إلى عصرنا الحديث.